د. محمد جاب الله

أصدقائي الموتى شكرًا



إهداء

إن إهداءً واحداً لا يكفي...هذه هي الحقيقة بكل بساطة.

أبي وأمي اللذان جعلا مني ذلك الإنسان و الكيان... يستحقون ملايين الإهداءات.

زوجتي وأطفالي الذين ساندوني في الشدةَ والرخاء... يستحقون ملايين الإهداءات.

أخي وأخواتي وأصدقائي الذين ملأوا حياتي بهجة وتفاؤل ورغبة في النجاح... يستحقون ملايين الإهداءات.

أساتذتي الذين علموني كل حرف وكلمة..يستحقون ملايين الإهداءات.

وأخيرا هؤلاء الضحايا الذين ألهمتني آلامهم أن أكتب عنهم و لهم وأن أصبح لسانهم الناطق و أملهم في العدالة.... يستحقون أيضا ملايين الإهداءات و الدعوات بالرحمة و المغفرة و السَكينة .

الشخصية الأساسية، وبطل السلسلة القصصية:

١- هو الدكتور/ مصطفى جاهين- الطبيب الشرعي- في الأربعين من عُمرِه.

٢- يعمل منذ عدة سنوات بمصلحة الطب الشرعي التابعة لوزارة العدل المصرية.

٣- تكوّنت لديه خبرة كبيرة نظرًا لعمله في أكثر من تخصّصٍ طبي قبل التحاقه بالعمل كطبيب شرعي.

فكرة السلسلة القصصية:

١- تقوم السلسلة القصصية على حلّ ألغاز مجموعة من القضايا الغامضة والشائكة التي يواجهها د/ مصطفى أثناء مسيرته المهنية، والتي يحاول فيها جاهدًا كشفَ غموض الجريمة في كل قضية اعتمادًا على أصول وقواعد الطبّ الشرعي العلمية المعمول بها في الواقع، وبعيدًا عن جوّ الخرافات والدّجل الذي قدْ يُحيط بتخّصص غامض كتخصص الطب الشرعي.

٢- القضايا بالطبع هي مزيجٌ بين الواقع والخيال، وأضيفت إليها كثيرٌ من التفاصيل الدرامية لإثراء الجانب الأدبي، كما تمّ حجبُ معلومات عن شخصيات وأماكن حدوث الأحداث الحقيقية احترامًا لحرمةِ وخصوصية المنوط بهم هذه القضايا.

٣- السلسلة القصصية تحمل في طياتها الكثير من الخبرات الحياتية لكلّ الأشخاص الذين يظهرون بها، مع اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم، كما تمّ الاهتمام بإدراج الكثير من المعاني والعِبر المأخوذة من تلك التجارب.

مقدّمة

لماذا تخافون الموتى؟ هل يرعبونكم حقًّا إلى هذه الدرجة؟

في حياتي لم أرَ ميتًا يستطيع أن يؤذي مَن هُم على قيد الحياة.

لم أرَ ميّتًا يقتل أو يسرق أو يغتصب.

لم أرَ ميّتًا يخدع أو يكذب.

الموتى لا يكذبون، يخبرونَك بالحقيقة، أو فقط يصمتون.

وعندما يصمت الموتى أكون أنا لسانَهم الناطق.

وعندما يعتقد الجميعُ أنّ الموت نهاية، أصبحُ أنا الوحيد الذي يؤمن أنّ الموت بداية.

نعم، الموتُ بداية الحقيقة واليقين.

ومعي أنا فقط يكون السؤالُ كيف ماتوا.. لا كيف عاشوا.

وعندما تختلطُ الأمور، وتضطرب الرؤى، وتُحيط الشكوك بي من كلّ جانب، وتتعدد الآراء.

أتحدّث إليهم هُم، هم وحدهم سيأخذونَ بيدي نحو الحقيقة، وأنا أثقُ برأيهم كثيرًا.

نعم أثقُ برأي الموتى، ولا يسعني في النهاية سوى أن أشكرَ أصدقائي الموتى على صدقهم!

القضيةُ الأولى

(أحلام، اسمها أحلام)



كان اليوم الأول لي رسميًّا كطبيب شرعي عقبَ انتهاء فترة التدريب، وأدائي اليمين القانونية أمامَ القضاء كمعاونِ طبيبٍ شرعي، وكان قد تمّ إرسالي للعمل في إدارة الطبّ الشرعي بتلك المحافظة مترامية الأطراف بدلتا مصر.

في طريقي لمقرّ العمل الجديد، تداعت إلى رأسي مئاتُ الأفكار والذكريات، فلم يكنْ عملي كطبيبٍ شرعي مجرّد صدفة، أو فرصة كان عليّ اغتنامُها، بل كان هروبًا من ذكرى مؤلمة حدثتْ لي، بينما كنت طبيبًا للطّوارئ في إحدى المستشفيات الحكومية.

الحقيقة أنّي كنت طبيبًا مشهودًا له بالكفاءة والانضباط، وكان قراري صادمًا لكلّ مَن حولي عندما قرّرت ترك ممارسة الطبّ الإكلينيكي والتحوّل للعمل بالطب الشرعي، واجهت انتقادات عنيفةً من زملائي بالمستشفى؛ لأنّهم ظنّوا أنّ موقعي كطبيبٍ طوارئ أفضلَ لي وللمرضى ولمستقبلي المهني؛ نظرًا لكفاءتي، ووالدي كان حزينًا وإنْ كان لم يخبرني بحزنه أو اعتراضه ولكنّني شعرتُ بهذا الحزن في نظراته إليّ، أعرفُ أنّه كان يريد أن يكون لي عيادة تعلوها لافتة تحملُ اسمي واسمَ العائلة لأكون مصدرَ فخرٍ لهم، وأنّ هذا لن يتحقق بانضمامي للطب الشرعي، ووالدتي- أيضًا- كانت تشعر بالضيق إلّا أنّها أنهت كثيرًا من الجدلِ العائلي حول قراري بعبارة بسيطة (إنت أدرى باللّي يريّحك، دي حياتك ومستقبلك، إحنا عملنا اللّي علينا لغاية ما وقفت على رجليك، والباقي عليك).

العجيب أنّ زوجتي لم تناقشني في القرار نهائيًّا، وكانت تعلم أنّني لن أتّخذ قرارًا مثل هذا إلّا إذا فكّرتُ فيه مليًّا، فهي على ثقةٍ أنني لن أضعَ مستقبلَ أسرتنا الصغيرة في مهبّ الريح، لاسيّما ومولودنا الأولُ على وشك الوصول.

الحقيقة وراءَ قراري بترك الطبّ العلاجي كانت تلك الحادثة

التي مررتُ بها أثناء عملي كطبيب للطّوارئ حينما حضرتْ سيدة عجوز إلى الاستقبال وهي تعاني من ألمٍ شديد بالصدر، وقمت أنا بإجراءِ كافّة الإجراءات التشخيصية، وتوصلت أنّها تعاني من (Pulmonary Embolism) أو (انسداد بالشرايين الرئوية)، كانت الحالة قد أخذتْ وقتًا طويلًا في التشخيص نظرًا لازدحام المستشفى، واستغراق وقتٍ طويل في إجراء التحاليل والأشعّات ورسم القلب، وما زاد الطين بلةً هو الخلافُ الذي نشأ بين أطباء الباطنة وأطباء الأمراض الصدرية حول، على عاتقِ من منهم تقعُ مسئولية علاجِ هذه السيدة؟ وفي أثناءِ هذا الوقت الطويل كانت السيدةُ تعاني، ولم تفلح المسكّناتُ في تخفيف ألمها، وكانت تصرخ مستغيثة (إلحقوني باموت منكم لله)، عرفتُ فيما بعد أنّها توفّاها الله فورَ إيداعها العناية المركزة، وشعرت بتأنيبِ ضميرٍ لما حدث لها، على الرغم من أنّني لم أقصّر في أيّ إجراء تجاهها.

للأسف لم يقتصرِ الأمرُ على تأنيب الضمير، ولكنّه امتدّ إلى أنني أصبحت أراها في أحلامي كلّ ليلة، وهي تصرخ وتقول: (منكم لله)، اعتقدت أنّ تركي للطب العلاجي ربما يكفّر ما اعتقدت أنّه ذنبي، نعم.. لن أكون مسئولًا عن أرواح البشر مرّةً أخرى في منظومة يملأها الفسادُ والبيروقراطية وضعفُ

الإمكانيات، ربّما التعامل مع الموتى سيكون أخفَّ وطأة ، فعاملُ الوقت عندهم بلا ثمن، ولكنّني حقًّا كنت مخطئًا مرّتين، مرة عندما ظننتُ أنّ عامل الوقت عند الموتى بلا ثمن، ومرّة عندما ظننتُ أنّ السيدة العجوز ستتركني وشأني بعد أن أتوقّف عن ممارسة الطبّ، فهي لم تتركني ولو ليومٍ واحد !

ما إنْ وصلت لمكتب الطبّ الشرعي حتى كان استقبالُ السيد الدكتور (مدحت لبيب) مدير الإدارة لي ولزميلي الآخر حافلًا، ومليئًا بالودّ واللّطف، كان يدرك ما نحن مُقبلين عليه، وأراد أن يزيل عنّا الرهبة والارتباك، وبعدَ وقتٍ قصير من التعارف وشرحٍ بعض التعليمات الخاصّة بنظام العمل قمتُ- وزميلي- بالتوجّه إلى الغرفة المخصّصة لنا انتظارًا لما سوف يعرض علينا من قضايا.

ولم تمرّ سوى ساعة حتى استدعاني مديرُ الإدارة، وما إن دخلت مكتبه حتّى ابتسم وقال: درش حبيبي، سمعت إنّك كنت شاطر في فترة التدريب.

ابتسمتُ بخجل، وقلت: ربنّا يخليك يا دكتور (مدحت)، لا والله عادي زيّي زي زمايلي ، هو أنا بسّ بأحبّ الطب الشرعي بزيادة شوية.

ضحكَ الدكتور (مدحت) وقال: ماشي يا أخويا، خدِ الكرتونة دي، فيها قضية خفيفة كده، حبة عضم لقوهم في مزرعة مهجورة، شوف كده ظروفها إيه، وركّب الهيكل العظمي واعمل puzzle، ووريّني شطارتك.

شعرتُ بالارتباك حيث كنت أتوقّع أنْ تكون أولُ القضايا قضية تشريح، أو كشف على مصاب مثلًا، ولكنْ لم يسبق لي في فترةِ التدريب فحصُ هيكل عظمي، ولكنّي لم أجرؤ على الاعتذار عن القضية، لا أحبّ أن أترك انطباعًا سيئًا عني منذ البداية، الأمرُ الذي جعلني ألتقط (حرز الكرتونة) بسرعة، وأنا أقولِ بهدوء: تحت أمرك يا دكتور (مدحت)، حاشتغل فيها على طول.

ردّ دكتور (مدحت) مبتسمًا: طبعًا إنت عارف حتعمل إيه، توصف الحرز من برّه وجوّه والكارت الملزوق عليه، تشوف العضم وتوضّح عدده، من العضم تحدّد سنّ المتوفى، وإذا كان العضم لنفسِ الشّخص واللّا أكتر، وتقريبًا ده عضم طفل صغير، فهيبقى صعب تحدّد نوعه ذكر أو أنثى من مجرّد الفحص الظاهري، ولو عرفت تحدّد زمن الوفاة وسبب الوفاة يبقى كتّر خيرك قوي، ولو احتجت حاجة تعالى اسألني.

شعرتُ بنوعٍ من التّشجيع والتحفيز في كلماته، ممّا أعطاني بعضَ الطمأنينة والثقة، وجعلني أغادر مكتبه وأنا أشعرُ بأن الموضوع سيكون سلِسًا وبسيطًا، ولكن فيما بعد اكتشفت أنّ شعوري كان خاطئًا، كان خاطئًا، وبشدة!!

كان الحرز عبارة عن كرتونة متوسّطة الحجم من الورق المقوّى، خفيفة الوزن، ومُحكمة الغَلق، وتمّ إغلاقها بالشّمع الأحمر الذي يحمل أختامَ وكيل النيابة المسئول عن القضية، وقد قمت بفتحها بحرص، وما إن فتحتُها حتى انبعثْت منها الرائحة العَطنة المميزة لرفاتِ عظامَ الموتى، ممّا جعلني أقومُ باستكمال الفحص في بلكونة غرفتي لتقليل شدّة الرائحة الكريهة.

قمتُ بوضع غطاءٍ ورقي على الأرض، وقمت بإخراج العظام من الكرتونة برفقٍ وحذر، كانت العظامُ كما أخبرني الدكتور (مدحت) لطفلٍ صغير، قمتُ بوضع العظام وتوزيعها حسبَ الوضع التّشريحي المعتاد، وكانت بعضُ العظام مفقودة، ولكنّي اجتهدتُ لترتيب الموجود منها مسترشدًا بكتبِ التشريح.

كنت قد انتهيتُ بعدَ حوالي ساعة من ترتيب العظام، وبيانِ عددها، وكتابة وصفِها، كما قمت بكتابةِ بيانٍ بالعظام المفقودة، وقد لاحظتُ أنّ العظام المشاهَدة كلّها سليمة، ولا يوجد بها

كسورٌ واضحة، كما تبيّنت عدمَ تكرار أيّ عظمة من العظامِ الموجودة، ممّا يشير إلى أنها عظام لشخص واحدٍ فقط، بعد هذا جاءت مهمةُ تحديد عُمر صاحبِ العظام، وقد كانت مهمّةً شاقة فعلًا؛ نظرًا لسوءِ حالة العظام وعدمِ اكتمالها، ولكنّني حاولت بكلّ ما أوتيتُ من معرفة، ومستخدمًا العظام المتوفّرة لدي، وكذلك من خلال فحصِ الأسنان الموجودة بالجمجمة، وكان الرأي المبدئي أنّ العظام لطفلٍ في حوالي الثانية عشرة من عمره، وقد توفّي منذ عام تقريبا.

وبينما هممتُ أن أعيدَ العظام إلى الكرتونة التي كانت بها، وجدتُ في داخل الكرتونة أجزاءً من ملابسَ مهترئة مغطّاة بالطين، كان خطأ منّي أني لم أقمْ بفحص مُحتويات الحرز بصورةٍ كافية، وذلك ربّما لأنّها أولُ مرّة أفحص حرزًا بمفردي، فقمت باستخراج أجزاءِ الملابس، ومحاولة فحْصها، تبيّنت أنها أجزاءُ مهترئة فيما يبدو لـ "تيشيرت" أطفال، وأجزاء أخرى من بنطال صغيرِ الحجم، وعقبَ ذلك قمتُ بوضع كافّة مُشتملات الحرز في الكرتونة مرّةً أخرى، وقمتُ بإغلاقه، وإعادة تحريزه بالشّمع الأحمر، وإرساله إلى المخزن الملحق بالإدارة.

كانت القضيةُ- فيما يبدو- سهلة، وعقدتُ العزم على كتابة التقرير في اليوم التالي عقبَ مراجعة بعض التّفاصيل العلمية

الخاصّة بها، وانتهى اليومُ الأول لي في المكتب، وعدتُ إلى منزلي وتناولت الطعامَ وتبادلت الحديثَ مع أسرتي وزوجتي، ثمّ خلدت للنوم.

(السيدة العجوز توقّفت عن الصراخ هذه المرّة، ولكنها مازالت تقفُ أمامي تنظر لي بغضب، لحظة.. إنّها ليست بمفردها، إنّها تُمسك بيدِ طفل أو طفلة بلا ملامح واضحة)، كان هذا باختصار آخرَ ما رأيته في حلمي قبلَ أن أستيقظ صباحَ اليوم التالي وأنا أشعرُ بحيرة كبيرة من ذلك الحلم العجيب، لماذا توقّفت السيدةُ العجوزُ عن الصراخ؟ ما سرُّ نظرة الغضب في عينيها؟ مَن هو ذلك الطّفل أو الطفلة التي تُمسك بيدها؟ هل هذه رسالةٌ من نوع ما؟ لم أكنْ أعلم ما تفسير هذا الحلم الجديد، ولكن كلّ ما كنت أعلمه أنه سيتكرّرُ لأنّ هذه السيدة قرّرت ألّا تتركني بسهولة!

في صباح نفسِ اليوم ذهبت إلى المكتب وقمتُ بأخذ إحدى القضايا السّهلة هذه المرة، وقمتُ بكتابتها في التّو واللحظة، وأرسلتُها إلى النيابة المختصّة، ولكني لم أكنْ بعدُ قد أنهيت تقريرَ الهيكلِ العظمي، كان الحلمُ الذي رأيته وتزامنُه مع هذه القضية يزيدُ حيرتي، وربّما كان إشارة إلى أنّني لم أقمْ بما يكفي في هذه القضية، ممّا دفعني إلى إحضار الحرز مرّةً أخرى، وإعادة

فحصه.

حضر أمينُ المخزن الأستاذ (حسن) حاملًا الحرز، وقال: اتفضّل يا دكتور (مصطفى)، الحرز أهو، حضرتك هتفحصه تاني؟

رددتُ عليه بهدوء: أيوه.. بعد إذنك، عاوز أتأكّد من حاجة.

وقمتُ بفضّ الحرز مرّةً أخرى، وقمتُ بفحص العظام بعناية، ولم أتبيّن شيئًا جديدًا، إلّا أن كون هذه العظام لذكرٍ أم أنثى كان يحيّرني، فقمتُ بالاتصال بالمعمل الطبي الرئيسي بالقاهرة والاستفسار منهم عنْ إمكانية استخراج الحامض النووي من تلك العظام، وتحديد أهيِ لذكرٍ أم لأنثى، وقد أجابوني بالإيجاب، وطلبوا منّي إرسالَ أحد الضلوع لفحصه، وقمتُ بالفعل بما طلبوا منّي، ثمّ قمت بإغلاق الحرز مرّةً أخرى، وإرساله للمخزن، ثمّ عدت لمنزلي، وتكرّر نفسُ الرّوتين المعتاد، طعام، حديث مع الأسرة، ثمّ أنام.

ليلتَها تكرّر الحلمُ مرّة أخرى، السيدة العجوز بنظرتها الغاضبة بصحبة طفلٍ أو طفلة بلا ملامح، ثمّ أستيقظ أنا، وأذهب إلى العمل أعملُ بقضايا أخرى وأنتهي منها، بينما قضيةُ الهيكل العظمي بلا حسم.

بعدَ أيام، وصلني تقريرُ المعمل الطبي المركزي يفيد بأنّ تلك العظام تعود لطفلة أنثى، وأنه قد تمّ استخلاصُ الحامض النووي بنجاح، لحظتها شعرتُ بسعادة غامرة، فقد اكتشفت إحدى النقاط المهمّة، وقررت لحظتَها أنْ أكتب التقرير في أقربِ وقت، وكالعادة تكّرر اليوم بكافّة تفاصيله، وذهبتُ إلى البيت معتقدًا أنّني لن أرى الحلم يتكّرر هذه الليلة، ولمَ لا! فقد وصلتُ لنتيجة مهمّة وأوشكَ دوري على الانتهاء في هذه القضية، ولكنّني على ما يبدو كنت واهماً.

تكّرر الحلم تلك الليلة أيضًا، السيدة العجوز الغاضبة تنظرُ إليّ وتمسك بيدِها فتاةً صغيرة غير واضحةِ الملامح.. مهلًا، إنّها فتاة هذه المرة، الحلمُ بدأ في الاختلاف، الحلمُ يتغيّر وفقًا لما أراه من مستجدّات في القضية، كان هذا استنتاجي عن الحلم أنّه يحمل إشارات حول القضية، ربما يُرشدني لخطواتٍ أخرى، وربّما يكون هو سبيلَ الخلاص وصكَّ الغفران من هذه السيدة العجوز لي.

ذهبتُ إلى المكتب صباحَ اليوم التالي، وبمُنتهى الفضول طلبتُ إعادةَ عرض الحِرز عليّ مرّة أخرى، فجاء الأستاذ (حسن) أمينُ المخزن، وبيدِه الحرز، وقال بلهجةٍ يشوبها الضيق: الحرز أهو حضرتك، هو في مشكلة واللّا حاجة في القضية؟

رددتُ بهدوء مبتسمًا: لا أبدًا، بسّ كنت عاوز أتأكد من حاجة.

ردّ (حسن) باقتضاب: أصل الحرز لو اتفتح واتقفل كتير ممكن الكرتونة تبوظ، يا ريت بلاش نفتحه كتير، وبرضه علشان نرجعه للنيابة.

كان مِن الواضح أنّ (حسن) يحاول اختبارَ شخصيتي، وعمّا إذا كنت بالعامية يمكن (ركوبي) من عدمه، وكان هذا النوع من الاختبارات يستفزّني إلى أقصى مدى، ممّا دفعني للقول بلهجة جافة وصارمة: مبدئيًّا القضية مسئوليتي، والحرز ده مش هيتحرّك من المخزن إلّا لمّا القضية تتصدر للنّيابة بعد ما أكتب التقرير، ولو الكرتونة باظت نجيب كرتونة غيرها، أعتقد كده واضح.

ردّ (حسن) بضيق: اللّي تشوفه، براحتك.

قمتُ بفتح الحرز، ونظرتُ بتمّعن إلى ما بداخله مرّة أخرى، ما الذي ينقصني هذه المرة؟ زمن الوفاة منذ عام، والهيكل لطفلة في حوالي الثانية عشرة من العمر، ولا توجد كسورٌ بالعظام الموجودة، فما الذي ينقصني؟ اكتشفتُ أنّ هذه الملابس لم أقمْ بوصفها أو فحصها بما يكفي!

قمتُ بفحص الملابس المهترئة، قمتُ بإزالة الطين عن الـ "تيشيرت" بعناية ورفق، فتبيّنت أنه "تيشيرت" أطفال مهترئ قليلًا، مرسوم عليه نجومٌ بألوان مختلفة.. مهلًا، هناك ما يبدو أنّه دم جافّ على منطقة الصدر، ليس هذا فحسب؛ ولكن هناك- أيضًا- ربما أربعة أو خمسة قطوعات حادّة الحواف بنفسِ المنطقة، وهذه القطوعات وفقًا لطولها الذي لا يتعدّى السنتيمترين تبدو وكأنّ سكينًا رفيعة أو مطواة قد أحدثتها.

كان ما اكتشفته للتوّ مثيرًا للاهتمام، فقمتُ بالاتصال مرّة أخرى بالمعمل الطبي للسؤال عمّا إذا كان بالإمكان الكشفُ عن الدّماء بالملابس المهترئة، فتبيّنت إمكانية هذا، وقمتُ بالفعل بإرسال الـ «تيشيرت» إلى المعملِ الطبي، وقمتُ بإعادة تحريز الملابس والعظام، وإرسالها للمخزن.

ذهبتُ إلى منزلي وأنا في غايةِ السّعادة حيث أنني وصلتُ إلى ترجيح أنّه ربّما سبب وفاة الطفلة كان الطعنَ باستخدامِ أداةٍ صلبة ذات نصلٍ حادّ كسكين أو مطواة، وكنت أنتظرُ فقط تأكيد المعمل الطبي لوجود آثار دماء على الـ "تيشيرت" حتى يصبح ما اكتشفته حقيقة، وقد يكون اكتشافًا مهمًّا لأنّ القضية ستتحوّل من قضية التعرفِ على هيكل عظمي مجهولٍ إلى قضية التعرف على ضحيةٍ لجريمة ما، وكذلك محاولة التعرّف على الجاني

في القضية.

خلدتُ إلى النوم هذه الليلة، وتكرّر الحلم بذاتِ تفاصيل المرّة السابقة، إلّا أن السيدة العجوز لم تكنْ غاضبةً هذه المرة، وكان هذا يعني حسبما أعتقدُ أنّها راضية عني بصورةٍ أو بأخرى، وهذا يكفيني لحين التخلّص منها نهائيًا.

مرّت عدةُ أيامٍ روتينية في العمل، وروتينية في الأحلام، حيث تكرّر نفسُ الحلم دون تغيير، وفي أحدِ الأيام وردَ تقريرُ المعمل الطبي مؤكّدًا وجودَ آثار لدماءٍ بشرية على الملابسِ المرسَلة، وكان هذا دليلًا قاطعًا أنّ خلف الهيكل العظمي تكمنُ جريمة قتلٍ بشعة راحت ضحيتها فتاة، كان هذا يكفي بالنّسبة لي للبداية في إعدادِ تقرير طبيّ شرعي خاصّ بالقضية، وأنهيتهُ بالفعل، وقمتُ ببدء إجراءاتِ إرساله للنّيابة المختصة.

لم أكن أتوقّع في هذه المرحلة أنْ يختفي الحلم، وكنت راضيًا أنْ يسير الحلم على نفس المنوال، ولا سيّما أنّ السيدة العجوز أصبحت راضيةً عنّي فيما يبدو، ولكن في الليلة التي اتخذت فيها إجراءات إرسال التقرير للنّيابة المختصة عاودني الحلمُ مرّةً أخرى ولكنْ بصورة مغايرة، كانت السيدة العجوز غيرَ غاضبة، وتنظر هذه المرّة إلى الطفلة غير واضحة المعالم التي تمسك بيدها،

كانت الطفلة هذه المرّة تبكي بصوت أسمعه بوضوح، هي لا تتحدّث بكلام مفهوم، فقط تبكي، والسيدةُ العجوز تنظر إليها ثمّ تنظر إليّ بحزن، وانتهى الحلم. ولم يكنْ لهذا سوى معنى واحد، أنّ هناك ما فاتني في هذه القضية، وأنّ ما فاتني ربّما يدمّر القضية، والأسوأ أنه سيُضيّع حق الفتاة للأبد !

استيقظتُ حزينًا ومشوّشًا في صباح هذا اليوم، ما الذي أفعله أكثر من هذا؟ لقد فحصت الحرزَ جيدًا، وأخذت كلّ الاحتياطات الممكنة، فلماذا بكاءُ الطفلة؟ وقلت في نفسي (يعني أنا أخلص من الستّ الحاجّة اللي زعلانة، تقوم البِتّ تعيّط!!).

ذهبتُ إلى المكتب في ذلك الصباح، وكنت قد عقدت العزمَ على فحص الحرزِ لمرّةٍ أخيرة ونهائية، لنْ أضيّع عمري كلّه في الفحص والتّمحيص، وفعلًا وفورَ وصولي للمكتب طلبتُ إحضارَ الحرز مرّةً أخرى لإعادةِ فحصه، ثمّ طلبتُ إحضار التقرير الذي أعددتُه في القضية لمراجعتِه، واكتشاف ما به من أخطاء، أو معلوماتٍ غير مكتملة.

قمتُ بفحص الحرز مرّةً أخرى بدقّة، هذه المرّة استوقفني أمرٌ مُحيّر ألا وهو أنّ طول العظام وحجمَ الجمجمة غيرُ متناسبين مع

العمرِ التّقديري لصاحبةِ الهيكل العظمي، والذي قدّرته باثني عشر عامًا، إنّ العظام تبدو لطفلةٍ أصغر في السن، ولكنْ مع سوء حالةِ العظام واعتمادي بصورةٍ كبيرةٍ على فحص الأسنان المتبقّية في الفكّين، فإنّ تقديري يبدو صحيحًا، ولكنّ الجمجمة صغيرة جدًّا، أصابتني الحيرةُ، قرّرتُ أن أجري أشعةً عاديّة على الجمجمة والفكين، فربّما أكتشف شيئًا ما، وبالفعل طلبتُ من فنّي الأشعة في المكتب إجراءَ أشعّة على الجمجمة، وبالطبع قوبل طلبي بالاستغرابِ والاندهاش مع نبرةِ اعتراض من فنّي الأشعة، فكيف نجري أشعةً لجمجمة على جهازٍ يستخدمه الأحياء؟!

بالطّبع حدث جدالٌ بيني وبينه انتهى بإصراري على إجراءِ الأشعّة معَ تهديدٍ ضمني بالشكوى لمدير المكتب في حال عدمِ تنفيذ طلبي.

مرّ ما يقربُ من نصف الساعة دونَ أن أتلقى الأشعةَ التي طلبتها، ولكنْ ما تلقيته هو طلبٌ من الدكتور (مدحت) مديرِ المكتب لمقابلته بصورةٍ عاجلة في مكتبه، وما إنْ دخلتُ المكتب حتى قال لي: في إيه يا دكتور (مصطفى)!؟ أنت عندك مشكلة في قضية الهيكل العظمي واللّا إيه؟

بدا على صوتي الارتباكُ وأنا أقول بحذر: لا أبدًا، حضرتك زيّ ما قلتلي القضية سهلة، بسّ أنا بأحبّ أتأكّد من حبة تفاصيل قبل ما أخلّص التقرير علشان القضية أوّل مرّة أعمل زيّها.

ردّ دكتور (مدحت) بحدة: ومش بتيجي تسألني وتطلب رأيي ليه؟ مش اتّفقنا لو في حاجة تبلّغني؟

قلتُ بخجل: والله يعني قلت قضية سهلة، ومحبّتش أزعج حضرتك.

قال دكتور (مدحت): هوّ أنا قاعد في بيتنا علشان تزعجني!! ده شغل، وبعدين أنا ملاحِظ إنّ القضية دي خدتْ من وقتك كتير، القضية متقيّدة عند النيابة (إداري).. يعني مش جنايات أو جُنَح، يعني قضية ميتة محدّش هيدوّر عليها كتير، ومفيهاش دوشة، أومّال هتعمل إيه لمّا تتعرض عليك قضية رأي عام، والمتهم فيها حدّ مشهور واللّا فيها قلق؟!! وبرضه طريقة تعاملك مع الموظفين فيها عصبية، وهمّا اشتكولي منّك، أنا محبّتش أكلّمك قدّامهم علشان مصغّركش، بسّ ياريت بعد كده تاخد رأيي في أيّ حاجة تقف عليك، وبرضه تحاول تكون هادي مع الموظّفين لأننا أسرة واحدة، وعملنا متكامل.

كنت في هذه اللحظة بالفعل قدْ وصلت لقمّة الإحراج والخجل من نفسي، ولم يعدْ بمقدوري النقاش والحديث، فما كان منّي إلّا أنْ قلت باستسلام: حاضر، أنا آسف، ومش هيتكرّر تاني.

ردّ دكتور (مدحت) بهدوء: متتأسّفش، أنت لسّه جديد ومتحمّس، وإن شاء الله بكره هتكتسب خبرة بالتّدريج، وبالمناسبة أنا قلت لفنّي الأشعة يعمل الأشعّة على الجمجمة زي ما أنت طلبت، عاوز أشوف اختراعاتك دي آخرتها إيه.

ابتسمتُ ثمّ استأذنتُ للانصراف، وعدتُ إلى مكتبي وكلّي إحباط، أعترف أنّني ربما أسأت التصرّف، ولكنّي- أيضًا- أدرك أنّ الدكتور (مدحت)، وبعدَ هذا العمر الطويل من العمل في الطبّ الشرعي ربّما فقدَ شغفَه وحماسَه للعمل، وربّما أصبحت بالنسبة له معظم القضايا روتينية ومجرّدَ أرقام في كشوف القضايا، ولكنْ بالنسبة لي- ومع تلك الأحلام التي أشاهدها كلّ ليلة- فإنّ هذه القضية ربّما تكون خلاصي مِن تلك السيدة العجوز التي تطاردني وتؤنّبني كلّ ليلة لخطأ ربّما ارتكبته بغير قصد، أو ربّما لم أرْتكبه أصلًا، لهذا كان ينبغي عليّ التعلقُ بأيّ شيء من أجل إنهاءِ القضية على أكمل وجهٍ أملًا في الخلاص !

أمسكتُ بالأشعة التي وجدتُها على مكتبي بالفعل، وما إن رفعتُها لأشاهد تفاصيلها حتى اكتشفتُ أنَّ الصدام والتوبيخ الذي نلتُه من مدير المكتب لم يذهبْ هباءً، لقد استحقّت هذه الأشعة كلَّ ما عانيته من أجلها حقًّا!

كانت الأشعة توضّح وجودَ أسنان بازغة، وهي التي اعتمدتُ عليها في تحديد عُمر صاحبة الهيكل العظمي، ولكنْ ما كشفتْ عنه الأشعة هو وجودُ أسنانٍ مازالت لم تبزغ من الفكّين، .أي أنّ الأسنان التي شاهدتُها سابقًا بالفكّين كانت بعضِ الأسنان اللبنية والأسنان الدائمة، أمّا ما كان مختبئًا في هذا الفكّ الصغير فهو باقي الأسنان الدائمة، وهو ما يعني أنّ العمر الذي حدّدتُه سابقًا كان خاطئًا، عمرُ الفتاة يتراوح ما بين ستّة أو سبعة أعوام، وليس اثني عشر عامًا، وكان هذا يعني الكثيرَ في حالةِ ما إذا كان هناك طفلة مفقودة في نفس العمر.

كان هذا كلّ ما يُمكنني استنتاجُه من الهيكلِ العظمي، ومنِ باقي محتويات الحرز، ولم يكن بمقدوري فعلُ المزيد، فقمتُ بإعادة كتابة التقرير وإرساله للنّيابة في ذات اليوم، وكذلك إرسال الحرز، ومِن فرط حماستي لما أنجزتُه في القضية قمتُ بالاتصال بوكيل النيابة المسئول عن القضية، وأخبرتُه أنْ يبحث في قضايا المفقودين عنْ قضيةٍ لطفلة في حوالي السادسة من

عمرها طولها حوالي ١٢٠ سم، وكانت ترتدي "تيشيرت" عليه نجوم بألوانٍ مختلفة، وبنطال الترينج أخضر، كما أخبرته أنّ سبب الوفاة المرجّح هو الطعنُ في الصدر باستخدام أداةٍ ذاتِ نصلٍ حادّ وطرف مدبّب مثل سكّينٍ رفيع أو مطواة، كما أخبرته أنّه في حالة وجود مَن يبحث عن فتاةٍ بنفس المواصفات فعليه إرسالُه إلى المعمل الطبّي الرئيسي بالقاهرة لإجراء اختباراتِ الحامض النّووي.

بالطّبع، نلتُ كثيرًا من الإطراء من السيد وكيل النيابة نظراً لكمّ المعلومات الكبير الذي وفّرته له، والذي من شأنه أن يغيّر مجرياتِ القضية، وتفرّغتُ عقب ذلك لمباشرة قضاياي العالقة بصورة أسرع، ونلت إشادةً من مدير المكتب، كما تحسّنت علاقتي كثيرًا بموظّفي الإدارة، حتّى أننا أصبحنا أقربَ إلى الأصدقاء.

مرّت عدّةُ أسابيع منذُ انتهائي من قضية الهيكل العظمي، وكانت أحلامي الخاصّة بالسيدة العجوز قد بدأتْ تقلّ تدريجيًّا، إلّا أنّها لم تختفِ نهائيًّا، كانت السيدة العجوز تجلس أمامي ناظرةً إلى الطّفلةِ الصغيرة المُمسكة بيدها، لا حديث ولا بكاء ولا صراخ، فقط صمتٌ مُطبق لثوانٍ، ثمّ ينتهي الحلم.

وفي أحدِ الأيام، وبينما كنت جالسًا بمكتبي أؤدّي بعضَ الأعمال، طرق الباب أحدُ العمال بالمكتب وأخبرني أنّ هناك زائرًا يسأل عني، ولقد اندهشتُ كثيرًا، نظرًا لأنني لا أعرف أحدًا خارج دائرة المكتب، ولكنّني وافقت على مضضٍ على لقاء الزائرِ الغريب، وما هي إلّا لحظات حتى دخل رجلٌ في حوالي منتصف العقدِ الرابع من العمر، ذو لحية خفيفة، ويبدو على ملامحه الحزن، ثمّ صافحني مُبادرًا بالحديث، وقال: السلام عليكم يا دكتور مصطفى.

صافحته ورددتُ عليه قائلًا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلًا يافندم، تحت أمرك.

أجابني بنبرةٍ حزينة: أنا والدُ الطفلة (أحلام).

لم أكنْ قد باشرت أيّة قضايا يوجد بها طفلةٌ اسمها (أحلام)، ممّا جعلني أجيبه متسائلًا: معلش، أحلام مين؟!

قال: الطفلة (أحلام) اللّي حضرتك شفت الهيكل العظمي بتاعها، وكتبت عنها تقرير.

هنا تذكّرت قضية الهيكل العظمي، حيث أنّني لم أتابع تطورات القضية منذُ أن انتهيت من التقرير وأرسلتُه للنيابة، فما كان منّي إلّا أن قلت: البقاءُ والدوام لله، ربّنا يصبركم ويرحمها.

ردّ بحزن: الله يخلّيك يا دكتور، أنا جاي أشكرك على مجهودك علشان تجيب حقّ بنتي، في النيابة قالولي إنّ تقريرك كان ليه دور، وساعدهم في حلّ القضية، وأنا عمري ماهأنسى لك الجميل ده.

كان حديثُه قد أثار فضولي لمعرفة تفاصيلِ القضية، فقلت له: لا أبدًا متقولش كده، ده واجبي، بسّ يا ترى إيه الجديد في القضية؟

بدا وكأنّني قد لمست جرحًا أليماً بوجدانه، وانسابت دمعةٌ من عينيه وهو يقول: والله يا دكتور مش عارف أقول إيه، أنا كنت متجوّز، و(أحلام) دي بنتي الوحيدة، وكنت شغّال في الخليج بقى لي فترة، أمّ (أحلام)- الله يرحمها- تعبت فجأة، واكتشفنا إنّ عندها سرطان الدم، لفّينا على دكاترة كتير، وصرفت كلّ فلوسي على علاجها، بسّ أمر الله نفذ، وماتت (أمّ أحلام)، رجعت بـ (أحلام) مصر، وقعدت فترة أظبّط أموري، ناس معرفة ليّا بعد كام شهر رشّحولي واحدة أتجوزها تراعيني وتراعي بنتي، وتبقى في مقام أمّ ليها، وأنا سألت عليها، وقالوا بنت حلال وأهلها طيبين، وفعلًا اتجوّزتها، وخدتها هي و(أحلام) وسافرنا الخليج تاني علشان أعمل قرشين، وأبدأ حياتي من جديد، كام شهر ومراتي الجديدة عملتْ مشاكل

معايا وقالت مش عاوزه أقعد في الغربة، واتّفقنا ترجع هيّ وبنتي يقعدوا في مصر وأنا أبقى أجيلهم زيارات، عدّت فترة وبعدين لقيتها هي وأخويا بيتّصلوا بيّا بيقولوا إنّ في ناس خطفوا (أحلام)، وطالبين من أخويا فدية مليون جنيه أو هيقتلوها بعد أسبوع، أو لو بلّغنا البوليس، أقسم بالله ما كان حيلتي عُشر المبلغ، استلفتْ من الناس اللّي قدرت عليه، وحوّلت الفلوس لأخويا، بسّ محدّش اتصل بيه تاني، ولا سمعنا أي حاجة، وأخويا عمل محاضر في كذا قسم وادّاهم أوصاف (أحلام)، أنا مكنتش عارف أعمل إيه، كنت بأشوف (أحلام) في الحلم، هيّ والمرحومة أمّها، وأعصابي تعبت.. فضلت كمان شهرين في الغربة وبعدين مقدرتش أكّمل ورجعت مصر، قلبت الدنيا في كلّ حتة علشان ألاقي بنتي، وللأسف معرفتش، جبت واسطة علشان تفتّش في محاضر التغيب بتاعة الأطفال.. وجبت واسطة علشان تشوف قضايا الجثث مجهولة الهوية في ٣ محافظات حوالينا، لغاية ما لقيت القضية اللي حضرتك عملتها، وقدّمت بلاغ إنّي أعمل كشف نسب في مصلحة الطب الشرعي، وطلعت بنتي هيّ صاحبة الهيكل العظمي، وعرفت إنّها ماتت مقتولة، خلال الفترة دي مراتي الجديدة عملت مشاكل معايا لربّ السما علشان ازّاي أرجع مصر وأسيب

حالي وشغلي في الخليج، مكانتش مقدّرة حالتي النفسية، طلّقتها وفوجئت بعدها بكام شهر متجوّزة شابّ تاني، لمّا عرفت إنّ بنتي اتقتلت شكّيت في طليقتي، وبلّغت النيابة إنّي بأتّهمها بخطفها وقتلها، مع التحقيقات وبعض الشهود اكتشفتْ إنّ طليقتي كانت على علاقة بالشابّ اللي اتجوزته وهيّ لسّه مراتي، وطليقتي اعترفت إنّ (أحلام) شافتها وعشيقها مع بعض، وإنّها خافت البنت تفتن عليها، وراحوا مدبّرين موضوع الخطف.. وعشيقها خدِ البنت وقتلها، ورمى جثتها في مزرعة مجهولة، وحصل اللّي حصل.

كانت تفاصيلُ القصة محزنةً وبشعة ومروّعة إلى أبعد مدى، ممّا جعلني أقول له بتأثّر: حسبي الله ونعم الوكيل، ربّنا المنتقم، ربنا يصبرك ويعوّض عليك.

أجابني باكيًا: يعني أنا غلطان علشان سافرت وسِبت بنتي مع واحدة غريبة!؟ والله العظيم كنت عاوز أعمل قرشين أأمّن لها مستقبلها، وأحميها من غدر الزّمن والمرض، طبْ أنا ليه يحصلي كلّ ده!!؟ أمّها تموت، وهيّ تتخطف مني بدري! أقسم بالله عُمْر ما دخل في فلوسي قرش حرام علشان يحصل لي كلّ ده.

قاومتُ دموعي بقوّة وأنا أواسيه: وحّد الله يا أستاذنا، ده

ابتلاء من ربّنا مش عقاب، وأنت شخص مؤمن، أنت مكنتش تعرف الغيب، وكنت بتجتهد لتوفير حياة كريمة لأسرتك ولبنتك، واللّي حصل ده قضاء الله وقدرُه.

بدأ الرجل في الهدوء تدريجيًّا قبل أن يُخرج صورةً من جيبه ويقول: بصّ كده يا دكتور، دي (أحلام) بنتي، دي صورتها وهيّ عندها ٥ سنين، بقى الملاك دي يحصل لها كده! دول عالم كفرة ميعرفوش ربنا.

أخذتُ الصورة من يديه وتأمّلتها، كانت الصورة لفتاةٍ صغيرةٍ قمحيّة البشرة ملائكية الملامح ذات شعرٍ أسود ناعمٍ، ترتسمُ على وجهها ابتسامةٌ رقيقة، بينما تبدو كزهرةٍ صغيرة وهي ترتدي فستانًا أبيضَ، كانت حقًّا أشبه بملاك صغير، زادتني هذه الصورة ألمًا وحزنًا على مصير تلك الفتاة الصّغيرة، أعدتُ الصورة إلى والدها وقلت: ربّنا يرحمها، في الجنة إن شاء الله، وربّنا يصبرك ويعوّض عليك.

ردّ عليّ الرجل متسائلًا: معلش يا دكتور، هيّ اتعذبت قوي وهي بتموت؟ إنت أكيد عارف!

كان سؤاله مفاجئًا وصادمًا لي بشدة، ولكنّ إجابتي الحقيقية أيضًا كانت ستكون صادمة ومؤلمة له، ولكنّني تداركت الأمرَ

وقلت: الله يرحمها، لو كانت اتعذبت واتألّمت في حياتها، فهي أكيد مرتاحة دلوقتِ، وفي مكان أحسن.

ردّ بأسى: أيوه.. الحمد لله، هي ارتاحت وأمّها الله يرحمها ارتاحت وسابوني أنا أتعذّب في حياتي من غيرهم وبحسرتي عليهم.

في هذه اللحظة دخل موظفُ للمكتب وأعطاني قضيةً جديدة من أجل البدءِ فيها، ممّا دفع والد (أحلام) للنهوض والاستعدادِ للمغادرة قائلًا: ألف شكر يا دكتور على مجهودك ووقتك، وآسف على إنّي عطّلتك، ربنا يحفظك لأسرتك ويخلّي حبايبك ليك، ويكفيكم شرّ المرض وأولاد الحرام، ولا يكتب عليكم اللّي اتكتب عليّا.

ثمّ غادر الغرفة مسرعًا حتى قبلَ أن أرد عليه، كانت هذه المرّة الأولى منذ شهور طويلة التي يدعو لي فيها غريبٌ ما مثلَ هذه الدعوات، كنت معتادًا على سماع هذه الدعوات من المرضى وذويهم عندما كنتُ طبيب طوارئ، أمّا بعد قدومي للطب الشرعي فلم يدْعُ لي أحدٌ إلى الآن، مَن قال إذًا إنّ الطب الشرعي عملٌ بلا مشاعر؟! مَن قال إنّ الطبيب الشرعي جافّ الأحاسيس؟ مَن قال إنّ العمل مع الموتى ومِن أجل

الموتى بلا فائدة؟ هل هناك أسمى مِن أن نتواصل مع مَن هم تحتَ التراب؟ تدافعُ عنهم وتقاتلُ من أجلهم وتحزنُ لمصابهم!

ربّما مجالُ الطب كلّه كذلك، أنْ نتألم لألم الآخرين، وتسعى من أجلهم، وتحارب من أجلهم، سواء كانوا أحياءً أو موتى، لا شيء سهلٌ في الطب، لا شيء مفرح، إلّا إذا عالجت نفسًا أو أعدتَ لها حقّها.

عدتُ إلى منزلي في هذا اليوم تملؤني مشاعرُ متضاربة؛ السعادةُ في إظهار الحق، ونصرة العدل في قضية (أحلام) الغامضة والصّعبة، والحزنُ والأسى على مصير الطفلة وأبيها، هكذا هي الحياةُ مليئةٌ بالمآسي والمصائب، ولكنّها تستمر إلى أنْ يرث اللهُ الأرض ومَن عليها.

في هذه الليلة، نمتُ بعمق، ورأيت ذلك الحلم، رأيت السيدة العجوز، ولأوّل مرة تنظر إليّ مبتسمة وتمسك بيدِها طفلة، ولكن في هذه المرّة ملامحُ الطفلة واضحة، الطفلة كانت هي الطفلة (أحلام) وهي تضحك ضحكةً طفولية رائعة، تلوّح لي وتودّعني، ثمّ السيدة العجوز و(أحلام) ترحلان مُبتعدتين عني حتى غابتا عن ناظري.

استيقظتُ في اليوم التالي سعيدًا، ومارستُ حياتي فيما بعد

بصورةٍ طبيعية، ولم تعاودني أبدًا أيةُ أحلام عن السيدة العجوز، أو عن الطفلة، ويبدو أنني قد حصلتُ على صكّ الغفران من السيدة العجوز بفضل تلك الطفلة الصغيرة، بفضل (أحلام).

اعترافاتُ طبيب شرعي



الحقيقةُ بعدَ ١٣ سنة كطبيبٍ شرعي، أحبّ أقول إنّي أحترم الأموات جدًّا، لأنّهم مش بيكذبوا.

الإنسان عندما يموت يتوقّف عن التنفّس وعنِ الكذب في نفْس اللحظة، وأيّ إنسان على قيْد الحياة مُمكن يكذب تحت أيّ ظرف أو ضغط.

إنّما الموتى مستحيل يكذبوا، عشرات القضايا اللّي شفتها، وكان الشهود والمُشتَبه فيهم، وحتى جهات التّحقيق متّفقة على تصوّر معيّن للحادثة، وكلّ الطرق تؤدّي لحفظ القضية، بسّ سبحان الله، الواحد يشوف في جثمان الميّت علامات ربّما تبدو ضئيلة ولكنها تقول عكس كلّ اللي الناس اتّفقت عليه. وفي الآخر،

يطلع الميّت هو اللّي صادق، وعلى حقّ، وقناعتي الدائمة هي (الموتى لا يكذبون، يقولون الحقيقة، أو فقط يصمتون)!

القضيةُ الثّانية

(الدينُ للهِ.. والعدلُ للجميع)



على الرّغم من أنّه فجرُ يوم الجمعة، إلّا أنّ كوني (نبطشيًّا) جعلني أعاني من الأرقِ طيلة الليل تحسّباً أن يأتيني اتّصالٌ يخبرني بوجود حالةِ تشريحٍ تُفسد عليّ يومٍ أجازتي الوحيد، وما إنْ صلّيت الفجر حتّى استسلمت للنوم آملاً أن يمرّ اليومُ بسلام.

ولم تكدْ تمرّ ساعتان حتى رنّ هاتفي المحمول بصورةٍ متّصلة نجحتْ في إيقاظي، وما أيقظني فعلًا ليس صوت الرنين بقدر ما أنّ الرقمَ المتّصل كان غريباً وليس مسجّلًا لديّ، ممّا دفعني إلى الردّ.

المتّصل: آلو، صباح الخير يافندم، دكتور (مصطفى جاهين)

معايا؟

أنا: صباح النور، أيوه، مين معايا؟

المتصل: مع حضرتك اللّواء (....)، مدير أمن (...).

أنا: أهلًا بحضرتك، تحت أمرك.

المتّصل: أنا آسف معالي الباشا، بسّ في حالة تشريح ذات طبيعة خاصّة، وفي قلق أمني، وحشد مِن الأهالي، وقرار النيابة العامة بالتّشريح جاهز، نستسمح معاليك لو نعملِ الحالة بدري قدر الإمكان علشان نعرف نسيطر على الموضوع.

أنا: تمام حضرتك. بسّ زيّ ما حضرتك عارف لازم أجهز، وأتّصل بالسواق وفنّي التشريح علشان يجهزوا، وده هياخد وقت، خاصّة إنهم مش مِن المحافظة هنا.

المتصل: معاليك إحنا كلّمنا فنّي التشريح الأستاذ (سبع)، وبعتنا عربية تجيبه من بلدهم على المستشفى، وبالنسبة لمعاليك فيه بوكس هيآخد حضرتك من تحت بابِ البيت لو تحبّ خلال ساعة.

أنا: معلش أنا آسف، مادام الموضوع فيه قلق أمني وحشود يبقى أحبّ عربية الطبّ الشرعي هي اللّي تبقى موجودة،

هتبقى أقلّ إثارة للقلق، وعمومًا هحاول متأخّرش قدر الإمكان.

المتصل: ربّنا يخليك يا دكتور، بسّ علشان نحاول نخلَص من القلق بسرعة، وده مش هيحصل إلّا بعد دفْن المتوفى.

أنا: إن شاء الله خير، بسّ عاوز أعرف إيه ظروف الواقعة علشان أبقى عامل حسابي.

المتصل: مجموعة شباب اتخانقوا في (الجيم) امبارح بالليل، وأحدهم توفّي متأثرًا بإصابته.

أنا: طيّب إيه بقى سبب التّجمهر والاستنفار الأمني!؟ الحكاية عادية يعني...

المتصل: المتوفّى شاب قبطي يا فندم، والمتّهمين مسلمين.

أنا: فهمت، خلاص خلال ساعة هأبقى في المستشفى، مع السلامة.

المتّصل: مع السلامة.

على الرغم من ضيقي الشّديد من الاتصال المباشر من مدير الأمن، وهو شيء غير معتاد، ومعناه أنّ رقم موبايلي أصبح الآن لدى معظم ضبّاط المديرية بالفعل، وهو يعني مزيدًا من الاتّصالات في أيّ وقت،.. إلّا أنّ ظروف الواقعة كانت تحمل

قدرًا كبيرًا من الخطورة والحساسية، وأيضًا كانت تعني أنّني سأواجه كثيرًا من الضّغوط والمتاعب منذ هذه اللحظة، وحتى يفصل القضاءُ في تلك الواقعة.

في غضون ساعة كنتُ قد وصلت إلى المستشفى حيث يرقد جثمانُ المجني عليه كما وعدتُ مدير الأمن، وما إنْ وطأت قدماي المستشفى حتّى ظهرت معالمُ التوتر التي تشوبُ المكان، شاحنتا أمن مركزي محملتيْن بعشرات الجنود، الكثيرُ من ضباط الشرطة، تجمْهَر من أقارب وأصدقاء المجني عليه أمامَ المشرحة، وتواجدٌ ملحوظ لرجال الدّين المسيحي في محاولةٍ لتهدئة الحشود الغاضبة، وفي هذه اللحظة أدركتُ أنّ المهمة لن تكونَ سهلةً على الإطلاق.

مِن واقع خبراتي السابقة كنت أعلمُ أنه لتجنّب إغضاب مثل هذه الحشود ولتسهيل أدائي لعملي؛ ينبغي عليّ أنْ أستعين بمَن يستطيع السيطرة على هذه الحشود، أو بمعنيٍ أصحّ مَن له كلمة مسموعة بينهم، وفي هذه الحالة كان رجالُ الدين هُم هدفي؛ لذا توجّهت إلى أحدهم دون أن يلاحظني أحد، وقلت بصوتٍ هادئ: صباح الخير يا أبونا، مع حضرتك د/ مصطفى جاهين- الطبيب الشرعي، البقية في حياتك.

ارتسمت ابتسامةٌ هادئة على وجْه القسيس، ومدّ يده ليصافحني وهو يقول: صباح النور دكتور/ مصطفى- حياتك الباقية، معلش أزعجنا حضرتك، بسّ حضراتكم رجال العدالة، وأملنا فيكم كبير.

رددتُ مبتسمًا، وقلت: ده واجبنا وربّنا يصبركم، يا ترى فيه حدّ من أهل المرحوم هنا، بسّ أقدر آخد منه كلمتين عن التّاريخ الطبي للمتوفّى؟

ردّ القسيس: مفيش إلّا والدته اللّي قاعدة هناك دي، وحالتها متسمحش بالردّ على أيّ أسئلة، والده متوفّى، وأخته في البيت، ممكن أقرب واحد ليه ابن خالته (فادي)، ثواني أجيبهولك.

وما هي إلّا دقائق حتى حضرَ شابّ في العشرينيّات من عمره. صافحني، وقال: أيوه يا دكتور، أنا فادي ابن خالة المرحوم، تحت أمرك.

قلت له: البقية في حياتك، بسّ عاوز أعرف المرحوم كان بيعاني من أيّ مشكلة صحية، أو بياخد علاج لأيّ حاجة؟

ردّ (فادي) بتحفّظ: لا حضرتك، كان زيّ الفل، وكنا مع بعض في كلّ حاجة، كانت صحته كويسة، وكان في (الجيم) ساعة الحادثة، ولا عمره اشتكى من حاجة، هوّ اتقتل مش

مات لوحده.

كانت الجملةُ الأخيرة من (فادي) تحملُ عصبيّةً واضحة، ممّا دفعني لأنْ أقول له: متقلقش، ده سؤال عادي، وبيفيدني بسّ في مهمّتي أثناء فحص الجثة، عمومًا ساعتين بالكتير، ونكون مخلّصين كلّ حاجة، عن إذنك.

وهممتُ بالدخول للمشرحة قبلَ أن يستوقفني (فادي)، ويقول: أنا داخل معاك يا دكتور، لازم نعرف إيه اللّي حصل للمرحوم ونآخد له حقّه، مش هنسيبه لوحده جوّه معاكم.

أصابتني كلماتُه بضيق شديد، إلّا أنّني حاولت الحفاظَ على هدوئي قدرَ المُستطاع قبل أن أقول له: أنا مقدّر موقفك، بسّ للأسف غير مسموح لأيّ حدّ بالتواجد داخل المشرحة إلّا فريق الطب الشرعي والسيد وكيل النيابة المختصّ، غير كده هيبقى فيه شبهة محاباة، أو مجاملة لصالح أحد طرفي القضية، وده مش لمصلحة القضية، وممكن يعمل مشكلة بعد كده أثناء المحاكمة.

ردّ (فادي) باندفاع وعصبيّة: ما هو مش هنسيبه لوحده معاكم، اللّي ضربه مسلمين، وانتوا كمان مسلمين، وحقّه كده يضيع، ده ظلم ومش هنسكت عليه.

في هذه اللحظة تدخّل القسيسُ بعدما شَعَر بتجاوز (فادي)، وحدوث توتر، وقال: حقّك عليّا يا دكتور، ميقصدش حاجة، حضرتك مقدّر طبعًا الموقف، اتفضّل حضرتك ربّنا يعينك ويقدّرك على إظهار حقّ ابننا، وكيل النيابة جوّه من فترة فعلًا، وإحنا واثقين فيكم.

كان حديثُ القسيس المهذّب كفيلًا بنزعِ فتيلِ التوتر وتهدئةِ الأجواء، وفي رأيي أنّ هذه كانت أصعبَ لحظات المأمورية التي كان يمكن أن أواجهها، والباقي سيكون أكثرَ سلاسة وسهولة، أو هكذا توهّمت!

كانت المشرحة من الداخل مكتظّةً بالعديد من الضبّاط، بالإضافة إلى السيد وكيل النائب العام وفنّي التشريح؛ عمّ (سبع)، وعدد لا بأس به من المُخبرين، كان العمل وسطَ هذا العدد الكبير من الناس يُصيبني بالتوتر، ويشتّت انتباهي، ممّا دفعني إلى اتّخاذ قرار بهذا الشأن، فتوجّهت إلى وكيل النيابة قائلًا: صباح الخير (محمود بك).. أخبار معاليك إيه؟

تهلّلت أسارير (محمود بك) بمجرّد رؤيتي، واحتضنني بحرارة قائلًا: دكتورنا العزيز، نورتنا والله، معلش قلقناك، بسّ إحنا في المعجنة دي من الساعة ١ بالليل، ويادوبك ارتحت ساعة بسّ

في الاستراحة.

جاوبته مُبديًا تفهّمي وقلت: ربّنا يكون في العون.. بسّ مش ملاحِظ إنّ الناس كتير قوي في المشرحة، بعد إذن معاليك نفضّيها شوية علشان القضية حسّاسة، وعاوزين تركيز وهدوء.

ردّ (محمود بك) وقال: تحت أمرك معالي الريس.

ثمّ خاطب أحدَ الضباط قائلًا: لو سمحت يا أحمد باشا، أنا وحضرتك ومعالي الطبيب الشرعي بسّ اللّي هنفضل في المشرحة، الباقي بسّ يستريح قدّام باب المشرحة يأمّن لنا المكان علشان نبتدي الشغل ونخلص.

وما هي إلّا لحظات حتّى ساد الهدوءُ المشرحة، فسألتُ وكيل النيابة: إيه ظروف الواقعة يا (محمود بك)؟

أجاب وكيلُ النيابة: القصّة إنّ مجموعة من الشباب كانوا في (الجيم) امْبارح الظهر، ومِن ضمنهم المجني عليه، وحصلتْ بينهم مشكلة على أسبقيّة استخدام أحد الأجهزة الموجودة هناك، وتطوّرت مِن مجرّد مشادةٍ كلامية إلى تشابك بالأيدي، ومجموعة منهم انْهالوا بالضّرب على المجني عليه، المجني عليه أغمى عليه من شدّة الضرب، بسّ فاق بعد كده، وقام اتكلّم ومشي راح بيتهم العصر واتغدّى ودخل نام، والدتُه حاولت تصحّيه بالليل بسّ

هو مصحاش، أهله نقلوه بسرعة للمستشفى اللّي أعلنت وفاته. طبعًا الموضوع خرج من مجرّد مشاجرة بين شباب إلى حادثة ذات بُعد طائفي، على الرّغم من إنّ صديقه اللي اتضرب معاه في الجيم كان مُسلم، يعني مكانش في عامل طائفي، برضه الفترة اللي مرّت بين الواقعة وحتّى وفاته عاملة لنا لخبطة، هل الواقعة السبب في وفاةِ المجني عليه، أو فيه سبب تاني، مع العلم إنّ كلّ الشهود قالوا إنّه راح بيتهم بيمشي على رجْليه وفايق، طبعًا إحنا كلّنا منتظرين نتيجة التشريح علشان نبدأ إجراءاتنا وتحقيقاتنا.

كانت الواقعةُ كما شرحها وكيلُ النيابة تحمل كثيرًا من التساؤلات، متى حدثتِ الوفاة؟ ما هو سبب الوفاة؟ ما علاقة الوفاة بالواقعة؟ وهل هناك علاقةٌ مباشرة، أمْ أنّ ما حدث هو محضُ صدفة وقضاء وقدر؟

كانت القضية تحملُ كثيرًا من الألغام الجاهزة للانْفجار في وجهي في أيّة لحظة، وكلّ خطوة فيها منذُ هذه اللحظة يجب أن تكونَ محسوبة، وإلّا سأكون أنا الضحية في هذه القضية، فقد تعوّدنا كأطباءٍ شرعيّين أن نكون كبشَ الفداء عندما تسوءُ الأمور، حدثتْ كثيرًا من قبل، وستحدُث مرّات ومرّات، المهمّ أنْ لا أكون أنا الضحية في إحدى هذه المرّات!

وعلى الفور، ارتديتُ البالطو الأبيض والقفّازات الطبية، واطّلعت سريعًا على التقرير الطبي المُحرّر في المستشفى، والذي كان بالمناسبة مُقتضبًا وغير مفيد على الإطلاق؛ (وصل المذكور إلى المستشفى جثةً هامدة، وتبيّنّا إصابتَه بمجموعة من الكدمات والخدوش بالرأس والوجه والأطراف، يُحوّل الجثمانُ إلى ثلاجة حفظ الموتى، وتُبلَّغ الشرطة والنيابة لاتّخاذ اللازم).

كانت الجثةُ لشابّ في منتصف العشرينيّات من العمر، ذي بنية قويّة، وطوله حوالي ١٩٠ سم، ومازال في مرحلة التيبّس الرمّي، وكان وجهه مليئًا بالخدوش، مع وجود كدمات بالجهة اليمنى من الوجه، كما تبيّن وجودُ كدمات بأنحاءٍ متفرقة من الجسم تختلفُ في الحجم والشكل، وكانت الكدماتُ في ظاهرها غيرَ مصحوبةٍ بإصابات ظاهرية قاتلة، وهذا ما يجعل تشريح الجثة عاملًا مهمًّا لبيان سبب الوفاة.

وبدأت عملية إجراء الصفةِ التّشريحية على جثة المتوفّى باستكشاف منطقةِ العنق التي وجدتُ بها كدمةً حول غضاريف الحنجرة دونَ وجود كسورٍ بها أو بعظام الرقبة، كما قمتُ باستكشاف منطْقتي الصّدر والبطن التي كانت مليئةً بالكدمات بطبقتي الجلد والعضلات، ولكنْ تلك الكدمات لم تكنْ مصحوبةً بأيةِ إصابات جسيمة بأحشاءِ الصدر والبطن،

القلبُ سليم، وكذلك الرئتان والطّحالُ والكبد والمعدةُ والأمعاء والكُلى، كلّ تلك الأحشاء سليمة وخالية من أيّة إصابات أو معالم مَرضية، كما قمتُ بفتح المعدة لمعرفةِ هل ما إذا كان قدْ تناول وجبةَ الغداء بالفعل من عدمه، وتبيّنت أنّ هناك بقايا طعامٍ بالفعل.

كما قمتُ بفحص الأطراف جيدًا، ولم أتبيّن وجود أيّةِ كسور بها، وكلّ ما بها هو مجرّدُ كدمات فقط لا غير.

كان فحصُ الرأس هو طوقَ النجاة لي، خاصّةً معَ عدم وجود سببٍ ظاهر للوفاة في باقي أنحاء الجسم حتى الآن، وما إن قمتُ باستكشاف منطقة الرأس حتّى تبين وجود أنزفةٍ دموية بفروة الرّأس من الناحية اليمنى دونَ غيرها من باقي أجزاءِ الرأس، كما لم يكنْ هناك كسورٌ بالجمجمة مقابلَ الجهة اليمنى، وعندَ هذه المرحلة طلبتُ من فنّي التشريح (عمّ سبع) أن يقوم بإزالة أعلى عظامِ الجمجمة (القبوة) بحرصٍ واهتمام؛ حتّى لا يتلف المخّ أثناء قيامه بإزالة العظام.

وما إنْ رفعنا عظام قبوة الجمجمة حتّى ظهر تجمّعٌ دموي متجلّط كبيرُ الحجم فوق الأمّ الجافية المغطّية للمخ، كان هذا التجمعُ الدموي ضاغطًا على المخ من الناحية الجدارية اليمنى

(أعلى الصّدغ الأيمن)، كما كان المخُّ متورّمًا بشدّة، مع وجود كدمات متعدّدة بالجهة اليسرى من المخ.

كانت المعالمُ الإصابية التي وجدتُها في منطقة الرأس كفيلةً بإحداث غيبوبةٍ كاملة للمجني عليه قد تعقبُها الوفاة نتيجة الضّغطِ على مراكزِ المخّ المتحكمة في التنفسِ وضربات القلب، ممّا من شأنه إحداثُ الوفاة، وكان هذا جديرًا بجعْلي أشعر براحة نسبية، حيث أنّ سبب الوفاة كان قد ظهر جليًّا، ولكنْ لمزيدٍ من الحذر قمتُ بأخذ عيّنات من بول ودماء المجني عليه للبحث عنْ آثار أية موادّ مخدّرة أو سموم قدْ يكون من شأنها التأثيرُ على حالته، كما قمتُ بأخذ عينة من موضع الإصابات بالمخّ وقلبِ المتوفى لفحصه معمليًّا، لربَّما تظهر أيّة أسباب مجْهريّة للوفاة، أخذُ الحيطة في مثلِ هذه الحالات ربّما يكون المنجّي من مهالك كثيرة، هكذا تعلمت.

وفي دقائقَ معدودة، قام (عمّ سبع) بخياطة الجِراح موضع الاستكشاف بحرصٍ، وغسّل الجثمان جيدًا بالماء، بينما قمت أنا بكتابة إشارةٍ مبدئية للنّيابة العامة أبْلغُهم فيها بانتهاء التشريح، وكان من المهمّ في هذه الحالة الإشارةُ إلى وجود إصابات بالمخ، ممّا من شأنه أن يهدّئ الرأي العام مؤقتًا حيث أنّ الإصابات مُثبتة ولم يتجاهلها أحد، وقمتُ بتسليم الإشارة

إلى وكيل النيابة، وخرجنا من المشْرحة تحتَ حراسة الشرطة، واتّجهت أنا وفنّي التّشريح إلى مكتبنا حيث قضينا بعضَ الوقت في ترتيبِ متعلّقاتنا قبل أنْ يغادر كلٌّ منّا إلى منزله.

خلالَ الأيام التالية، قمتُ بإرسال العيناتِ المأخوذة من جثمان المجني عليه إلى المعامل الطبية والكيميائية لفحصها حتّى يمكنني إعداد تقريرٍ متكامل عن الحالة، فمثلُ هذه القضايا من الأفضل أن تتسلّح بكلّ الأدلة العلمية تحسّبًا لمواجهاتٍ محتملة في المحاكم ووسائل الإعلام، وبالطبع نِلت نصيبي من الاتّصالات المتكرّرة من النيابةِ المختصّة لسرعة إعداد التقرير، ولكنّني كنت مصرًّا على ألّا يخرج التقريرُ منقوصًا.

على الرّغم من سهولة الحالة، ووضوح سبب الوفاة على الأقلّ بالنسبة لي؛ إلّا أنّ المهمة الصعبة كانت في كيفية تفسيرِ حدوث الوفاة لغير المختّصين، أمرٌ آخر كان يثير الحيرةَ في داخلي، ألا وهو طولُ قامة المجني عليه، فإنّه لإحداث تلك الإصابة الشديدة بيمين رأسه ينبغي أن يكون المُعتدي أيضًا طويلَ القامة، أو أنْ يكون قد استخدم عصًا أو جسمًا صلبًا طويلًا وثقيلًا، أو على الأقلّ أن يقوم بإسقاط المجني عليه قبلَ أن يصيبه في رأسه، ونقطة أخرى أثارت حيرتي بشدّة وهي أنّه معَ وجود أكثر مِن مُشتبه به وتعدّد الجناة، لماذا تركّزت

إصاباتُ الرأس بالجهة اليمنى فقط؟!

كانت تلك الأفكارُ تؤرقني فعلًا، ولكنّني كنت أؤجّل أيّ تفكيرٍ بها حتّى ظهور نتيجة تحليل العينّات، وإعدادي للتّقرير النهائي.

بعدَ حوالي شهر ونصف اكتملتْ تحتَ يدي كلُّ عوامل كتابة تقريرٍ كاملٍ، وبالفعل أعددتُ التقرير الذي انتهى بأنّ سبب الوفاة يعودُ لإصابة المجني عليه بالرأس، وما نتجَ عنها من نزيفٍ دموي فوقَ الأمّ الجافية من الناحية اليمنى، وما نتج عنها من ضغطٍ على المخّ، وتورّم به، ممّا أدّى إلى توقّفٍ بمراكز التحكّم بالتنفس والقلب، والذي أدّى- في مُجمله- إلى هبوطٍ حادّ بالدورتين الدموية والتنفسية انتهتْ بالوفاة؛ (الوفاة إصابية)!

قمتُ بإرسال التقريرِ إلى النيابة المختصة، وجلستُ في انتظار استدعاءٍ للمناقشة والشهادة أمام المحكمة، فمثلُ هذه القضايا لن تمرّ مرورَ الكرام، وعلى الرّغم من قلقي بخصوص الاستدعاء للمُناقشة في هذه القضية، إلّا أنّ شيئًا ما بداخلي كان يُخبرني أنّ التقرير، حتّى وإن كنت قد استفضتُ فيه بالشرح والتحليل؛ إلّا أنّ المناقشة الشفهية ربّما تفسح المجالَ لكثير من التوضيح.

شيء آخر كنت أعلمُه وأشعرُ به، ولكني لم أجرؤ بالبوْح

به؛ وهو أنّ المتوفّى لم يكن راضيًا عمّا كتبتُه أنا في تقريري، كان يحاول أنْ يخبرني أنّ هناك شيئًا ما غيرَ صحيح، هناك حلقةٌ مفقودة لم يبحثْ عنها أحد، كان اعتراضُه يأتي في صورةِ تساؤلات تأتي إلى ذهني حولَ الإصابات وعددِها وكيفيةِ الإصابة بها، وغيره من الأسئلة المعلّقة التي لم أجدْ لها إجابةً مقنعة في الأدلة المادية التي بينْ يدي، ولا يعترف القضاءُ إلّا بها!

وجاء اليوم الموعودُ للمناقشة أمامَ محكمة الجنايات، وكان يومًا مشهودًا لا شكّ في هذا، ودخلت قاعةَ المحكمة، وجلستُ في انتظار دوْر القضية في النظر أمامَ هيئة المحكمة، من بعيد لمحت (فادي) ابن خالة القتيل يختلسُ النظر إليّ، ثمّ يشُير لآخرين نحوي ممّا جعلهم ينظرون إليّ، كانت والدةُ المتوفى وأخته، وكنت أعلمُ معنى نظراتهم جيدًا، هي نظراتٌ بها مشاعر مختلطة من الرّجاء والشك.

بعدَ حوالي ساعة، نادى حاجبُ المحكمة على القضية، وعلى اسمي، فقمتُ بالمثول أمام المحكمة، وقمتُ بتعريف نفسي، وانتظرت أسئلةَ هيئة الدفاع عن المتّهمين، وكان أوّلُ سؤال من المحامي: كيف تفسّر أنّ المجني عليه كان على وعيٍ كامل عقبَ الواقعة، وعادَ إلى منزله مشيًا على الأقدام رفقةَ صديقه!؟

ألا يدلّ هذا على عدم وجود علاقة بين الواقعة ووفاةِ المجني عليه؟ أجبتُ بثقة: من المعروف علميًّا وجودُ فترة زمنية تسمى (Lucid interval) أو فترة الصحوة والاستفاقة، وهي مرحلةٌ قد تأتي عقبَ فقدان المجني عليه للوعي نتيجةَ الإصابة بالرأس، وأثناء هذه الفترة قد يبدو المصابُ طبيعيًّا ويمارسُ حياته بشكلٍ طبيعي، ولكنْ عقب تلك الفترة يدخل المصابُ في غيبوبةٍ قد تنتهي بوفاته، وسببُ هذه الظاهرة أنّ الإصابة في الرأس قد تسبّب نزيفًا بطيئًا بالأغشية المُحيطة بالمخ، ومعَ مرور الوقت يزداد النزيفُ، خاصّة مع عودة الإنسان لنشاطِه ووعيه الطبيعي، وعندَ وصول النزيف لحجمٍ معيّن ضاغطًا على المخ، يحدث تدهور في وعي المصاب، وتحدث عدّةُ مضاعفات ربّما تنتهي بالوفاة، وفي حالتنا المذكورة بالقضية فإنّ الفترة المُنقضية بين حدوث الإصابة وحتّى حدوث الوفاة، وكذلك كمية النزيف، كانت كافيةً لإحداث الوفاة.

بدا عدمُ الارتياح على وجْه المحامي نظرًا لتفنيدي سؤاله، فبادرني بسؤال آخر: هل يعقل أنّ مجموعة من الضّربات باليد المجردة يمكن أن تُحدث نزيفًا في المخ يؤدّي إلى وفاة المجني عليه؟

أجبتُ مرّة أخرى بثقة: مِن المعروف علميًّا أن مجرّد الاهتزاز

العنيف للرأس كفيلٌ بإحداث تلفٍ بالمخّ وشبكية العين نتيجةَ اصطدام المخّ بصورة متكررة بالجمجمة من الداخل، وهو ما يسمّى علمياً بمُتلازمة اهتزاز الكبار أو shaken adult syndrome- وقد تمّ توثيق عدة حالات بصورةٍ علمية في بعض حوادث العنفِ المنزلي وتعذيب السجناء.

ابتسمَ المحامي قبل أن يقولَ بلهجةٍ حملت نبرة تهكّم: سيادة الطبيب الشرعي بيكلّمنا عن نظرياتٍ تخيّلية، وكلمات معقّدة، في محاولةٍ لإعطاء كلامه نكهةً علمية ، كلام أوّل مرة نسمع عنه.

كنت أعلمُ ما يهدف منه المحامي من هذه الطريقة، فقد كان يحاولُ استفزازي حتى أفقد تركيزي، أو أتّخذ ردّ فعلٍ عدائي يُفسد المناقشة، فما كان مني إلّا أنِ ابتسمت وقلت: أنا آسف لاستخدامي أسلوب علمي معقّد في الشرح، بأسلوب أكثر بساطة، تخيّل حضرتك لو جبْنا بيضة وحطّيناها جوّه صندوق خشب، وقعدْنا نهزّ الصندوق جامد، إيه اللّي هيحصل؟ البيضة هتتكسّر، ومحتوياتها هتبوظ، ويختلط البياض بالصّفار، ده نفْس اللّي بيحصل للمخّ مع ارتجاجه داخل صندوق الجمجمة الصلب، مجرّد الاهتزاز العنيف كفيل بإتلافه.

بدا الاقتناعُ على وجْه هيئة المحكمة، وكانت معركة الأسئلة العلمية والجوانب الفنية الخاصة بالقضية قد حسمتها لصالحي، ممّا دفع المحامي للتطرّق لجوانبَ أخرى بدأها بسؤالي: حضرتك كاتب في بداية التقرير (قمْنا بتوقيع الكشف الظاهري، وإجراء الصفة التشريحية على جثة المتوفّى إلى رحمة مولاه،..)، يا ترى يا دكتور حضرتك بتكتب نفس الجُملة في كلّ التقارير، واللّا في التقرير ده بسّ!؟

سألته باستغراب: باكتب في كلّ التقارير كده، دي ليها علاقة بسبب الوفاة؟!

ردّ المحامي مبتسمًا: لا أبدًا، أصل فيها لمحة تعاطُف مع المجني عليه.

كانت لهجتُه غيرَ مريحة، ولكنّني تجاهلته، فسألني سؤالًا آخر: هل استعنتَ بمشورة أو رأي السيد الطّبيب الشرعي مدير الإدارة التابع أنت لها؟

كان يقصد الدكتور/ مجدي حبيب- مدير إدارة الطبّ الشرعي التي أعمل بها، والذي كان مسيحيًّا، وكان المحامي يلمّح إلى كوني متحيّزًا لخروجِ التقرير بهذه الصورة لكي أدين المتّهمين، وكان هذا التلميح غيرَ مقبولٍ على الإطلاق، ممّا دفعني

إلى الردّ بلهجة تحمل غضباً ظاهراً: للأسف حضرتك خرجتْ عن السؤال في الأمور الفنية الخاصّة بالتقرير، وبدأت في التلميح بصورة غير مقبولة إلى إمكانية انحيازي لطرفٍ دون الآخر، بس أحبّ أقول لحضرتك أنّني لم أستعن بمشورة أيّ أحد، وأحبّ أأكّد إنّ في نهاية هذه القضية كلّكم هتعتبروها قضية وانتهت بالحكم فيها أيًّا كان الحكم، حتّى أهل المجني عليه ممكن يحزنوا شوية، وبعدين يمارسوا حياتهم الطبيعية، إنّما أنا كطبيب شرعي هأفضل شايل حقّ هذا المتوفى ودمّه في رقبتي حتى مماتي وسأحاسَب عليه يوم القيامة أمام الله، وده كفيل إنّه يخلّيني لا أضع اعتبارًا لانتماء الجاني أو المجني عليه في تقريري.

شعر القاضي في هذه اللحظة أنّ المحامي قد نجح بصورةٍ ما في مضايقتي، وأنّ المناقشة ربما تتحوّل إلى جدالٍ لا طائل منه؛ فتدخّل قائلًا: إحنا كلّنا ثقة في رجال الطب الشرعي ومهنيتهم العالية، وأرجو من هيئة الدفاع إذا كان عندها أسئلة فنيّة عن التقرير تتفضّل تسألها، وغير كده لأ.

شعرَ المحامي أنّ هيئة المحكمة أصبحت متحفّزة ضدّه بسبب تلميحاته، وما أدّت إليه من ضيقي، فحاول تلطيف الموقف واستجداءَ التعاطف قائلًا: أرجو المعذرة من هيئة المحكمة الموقّرة، ومن السيد الطبيب الشرعي، فنحن اليوم بصددِ الحكم

على خمسةٍ من الشّبان حديثي السنّ، ومستقبلهم على المَحك.

أجابه القاضي بصرامة: لا يعْنينا في شيء إذا كانوا خمسة أو عشرة، الشهود أثبتوا تورطهم في الواقعة، وفيديو المراقبة المحرّز في القضية رأينا فيه الخمسة وهمّا بيعتدوا بالضّرب المبرح على المجني عليه، حتى أسقطوه أرضًا، وأحد الأشخاص بيُجري عملية إفاقة للمجني عليه، كلّه متسجّل، ومفيش فيه شكّ أو جدال.

في هذه اللحظة شعرتُ أنني قد وجدت الحلقةَ المفقودة التي يخبرني عنها المتوفّى وتثير حيرتي، فلم أكنْ قد اطّلعتَ على فيديو المراقبة، ولم يكنْ من المعتاد أن يطّلع الطبيب الشرعي على مثل هذا النوع من الأدلّة، ممّا دفعني لمخاطبة رئيس المحكمة: معالي المستشار، هل تأذن لي بمشاهدة فيديو الواقعة؟

نظرَ القاضي لي بدهشةٍ قبل أن يوجّه الحديث لممثّل الادّعاء قائلًا: هو السيد الطبيبً الشرعي مكانش شاف فيديو الواقعة؟ هوّ مش ده دليل فنّي يمكن للطبيب الشرعي أن يستخرج منه معلومة أو دليل يفيد القضية؟!

بدا الحرجُ على ممثّل الادّعاء قبل أن يستكملَ القاضي حديثه: تُرفع الجلسة لعرض فيديو المراقبة بغرفة المداولة.

وأمرَ القاضي بإحضار جهاز كومبيوتر لغرفةِ المداولة وتشغيل

فيديو الواقعة، ولأوّل مشاهدة للفيديو كانت الأحداثُ في الفيديو تبدو عادية، مجموعة من الشباب يتشابكون بالأيدي بصورة عنيفة، المجني عليه يبدو أقوى المُتعاركين وأطولهم، وكان قادرًا على الدفاع عن نفسه بصورة واضحة، ثمّ فجأة تُصيبه ضربة من أحد الأشخاص، فيسقط أرضًا، ويتّجه نحوه شخصٌ آخر من غيرِ المتعاركين ويجلس بجواره، ويبدو أنّه يحاول فعلَ شيء ما.

كان الفيديو للمرّة الأولى غيرَ كافٍ للحكم، فطلبتُ من هيئة المحكمة إعادة تشغيل الفيديو بصورةٍ بطيئة، فظهرَ على هيئة المحكمة الضجر، ولكنّهم استجابوا لي، وقمتُ بمشاهدة الفيديو مرّة أخرى بالسّرعة البطيئة، وفجأة انتبهتُ لشيء كان كفيلًا بقلب المُحاكمة رأسًا على عقب، بل نسفها تمامًا!

(معالي المستشار، هوّ ده القاتل)، نطقتُ هذه الجملةَ بحماس واضح، وأنا أشيرُ إلى شخص ما في الفيديو، وانتقلَ حماسي بصورةٍ مباشرة إلى هيئةِ المحكمة والمحامي قبلَ أن يقول القاضي: حضرتك بتقول مين القاتل!!؟

رددتُ بسرعة، وبثبات: الشخص اللّي قاعد بجوار المجني عليه في اللقطة دي، هوّ ده مُحدِث الإصابة التي أوْدت بحياة المجني عليه.

ردّ القاضي باستغراب: بسّ ده مش من ضمن المتّهمين أصلًا، ده شخص كبير في السن.

جاوبته بثقة: بعد إذْن حضرتك نشوف الفيديو تاني معَ بعض، وهأشرح لحضراتكم المشهد كاملًا، كلّكم كنتوا مركّزين مع الشباب المتّهمين وتصرّفاتهم، وبمجرّد سقوط المجني عليه على الأرض انتهتْ بالنسبة لكم الواقعة، لكن المشهد التالي لسقوطه ده كان مهمّ ليّا جدًّا؛ لأنّه كان فيه القاتل بيرتكب جريمته. في البداية، الخمسة المتّهمين في حالةِ اشتباك مع المجنِي عليه، مِن الملاحظ إن كلّهم أقصر منّه بكثير، أيديهم لا تصلُ لرأسه بأيّ حال من الأحوال، ومحدّش فيهم معاه أيّ أداة مُمكن تسبّب إصابة المجني عليه بالرأس، زيّ ما احنا شايفين كلّ ضرباتهم تركّزت في صدر وبطن وأطراف المجني عليه، حتّى الضربات اللّي وصلت وجهه كانت كلّها صفعات مش لكمات قويّة، فيَ اللقطة دي واحد منهم بيضرب المجني عليه لكمة في الرّقبة في منطقة الحنجرة، بعدها بيسقط المجني عليه على الأرض مغمى عليه، وده بيتماشى مع مشاهدتي لوجود كدمة حول الحنجرة، والضربة دي كفيلة إنّها تسبّب الإغماء لأنّها بتؤدّي لإبطاء ضربات القلب.

بمجرّد سقوط الضحية على الأرض اندفع نحوه شخصٌ غريب،

المشاهد العادي للمشهد يفتكر إنه بيحاول يفوّق المصاب، بسّ لو لاحظتم هنا إنّ المجني عليه نايم على جمبه اليمين، والشخص ده بيهزّ دماغ المصاب بقوّة، وفي بعض الأحيان بيضربها في الأرض بعنف، وده لمدّة دقيقة كاملة.. المشهد ببطء يوضّح إنّ دي مش طريقة إفاقة، ده اعتداء مُباشر على الرأس من جهة اليمين، الاعتداء ده بيتوقّف في لحظة دخول صديق المجني عليه للمشهد، ومحاولته برضه إسعاف المجني عليه.

طبعًا بعد المجني عليه ما استعاد وعيُه كان غير مُدرك لطبيعة الإصابة اللّي حصلت له، وظهر بصورة طبيعية، ولكن الضّرر والنّزيف بالمخ كان ابتدى بالفعل، ولكن بصورة بطيئة نظرًا لانخفاض ضغط دمّ المجني عليه، وبالتدريج ضغط الدم ارتفع معَ زيادة نشاط المجني عليه بعد ما فاق، بمرور الوقت كان النزيف بيضغط على المخّ أكتر وأكتر، لغاية ما دخل المجني عليه في غيبوبة، وتوفّي.

بدا الاقتناعُ على وجوه أعضاءِ هيئة المحكمة، وعلى الجانب الآخر ارتسمت سعادةٌ غامرة على وجْه محامي المتّهمين قبل أن يسأل القاضي ممثّلُ الادعاء: مين الشّخص اللي أشار إليه الدكتور ده؟ ردّ ممثّل الادّعاء قائلًا: ده (....) صاحب الجيم محلّ الواقعة، وتمّ التحقيق معه، وادّعى أنّه كان بيحاول يحمي

المجني عليه من المتّهمين، وإنّه هو اللي فوّق المجني عليه، ومحدّش وجّه له أي اتّهام.

ردّ عليه القاضي: يتمّ ضبطُه وإحضارُه على الفور، والتحقيق معه، ومواجهته بالفيديو مرّة أخرى مصحوبة بشهادة الطبيب الشرعي.

ثمّ نظرَ القاضي لي، وقال: إحنا عاجزين عن الشّكر يا دكتور، فعلًا حضرتك حوّلت مجرى القضية تمامًا، طبعًا حضرتك تقدر تتفضّل دلوقتِ، بسّ أكيد لينا لقاء تاني في نفس القضية بعد إنهاء إجراءات استجواب المتّهم الجديد.

انصرفتُ بسرعة عقبَ رفع الجلسة المُغلقة، وتوجّهت إلى سيارة الطبّ الشرعي التي كانت في انْتظاري أمامَ المحكمة، وما إنْ ركبت السيارة حتّى وجدت (فادي) ابنَ خالة المجني عليه يحاول مُصافحتي قائلًا: شكرًا ليك يا دكتور، وآسف على كلامي معاك.

رددتُ عليه قائلًا: ولا يهمّك.. محصلش حاجة.

وتجاهلتُ مصافحته وطلبت من السائق التحرك، عقبَ مغادرتنا نظرَ إليّ السائق، وقال ضاحكًا: شكلك شايل منّه قوي، مرضيتش تسلّم عليه ليه؟!

قلت له: هوّ طرف في القضية، مينفعش أُبدي أيّ تعاطف أو تجاوب معاه، وبعدين الحمدُ لله، ربّنا كرمنا وأنقذنا مستقبل ٥ شباب من الضياع.

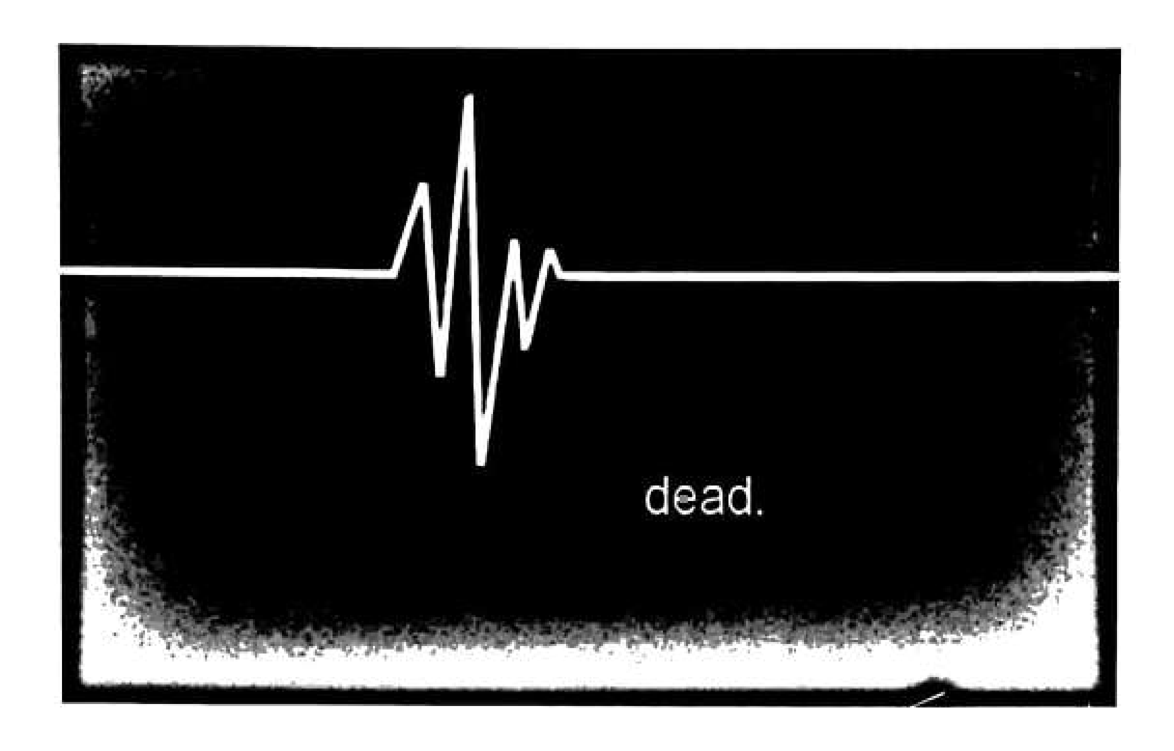
ردّ عليّ السائقُ ممازحًا: إيه اللّي حصل؟ القضية اتْفَشكلت وخدوا براءة؟

رددتُ عليه مبتسمًا: لا القضية سليمة، بسّ القاتل طلع شخص تاني غيرهم، طلع صاحب الجيم.

تساءل السّائق بتلقائية: وده مسلم واللّا مسيحي؟

رددتُ عليه بحزم: مش هتفرق معايا في حاجة، مش لازمني أعرف ديانته إيه، كلّ اللّي أعرفه إنّه قاتل، وده يكفيني.

النّهايات



أنا كطبيبٍ شرعي حتمًا لا أعرف بدايات حياة الضّحايا الذين أقوم بفحصهم، وبالتأكيد ليس لدي خلفية كافية عن أحداث حياتهم، ولكنْ كلّ ما أستطيع الجزمَ به والتيقّن منه هو نهاية حياتهم، وكيف كانت لحظاتهم الأخيرة...

فذلك الشخصُ كان يشعر بفزعٍ شديد، بينما كان يقوم الجناةُ بتقييده، ثمّ تسارعت أنفاسُه وضرباتُ قلبه بشدّة عندما قاموا بكتْم نَفَسه، ثمّ فقد الوعي قبل أن تحدث النهاية الحتمية.

أمّا ذلك الشخص فلم يشعرْ بشيء، فقد أنهتِ الرّصاصةُ التي أصابتْ رأسه كلَّ شيء في لحظة واحدة.

وتلك الفتاة تألّمت كثيرًا بعد تعاطيها ذلك السمّ بقصدِ الانتحار،

للأسف لقد اختارتْ أكثرَ النهايات إيلامًا.

بالطّبع هناك بعضُ النّهايات التي لم أستطعْ تحديدها لعدّة عوامل، وهذا ما يضعني ضمنَ خانة (الكائن البشري محدود العلم والقدرات)، بعكس ما يعتقده الكثيرون.

أيًّا كان، أعتقدُ أنّني أصبحت أجيدُ تخيّل النهايات وكتابتها، ولسوء حظّي أصبحتُ أفكّر كثيرًا في نهايتي، وأتمنّى لنفسي نهايةً غير التي أراها معَ الموتى الذين أفحصهم، وداءمًا أدعو ربّي في صلاتي: (اللّهم ارزقني حُسنَ الخاتمة، ومَردًّا إليك غيرَ مخزٍ ولا فاضح).

القضيةُ الثّالثة

(بلا عيون)



(بحبّ اتنين سوا.. يا هنايا في حبّهم، الميّا والهوا.. طول عمري جنبهم)

كان صوتُ الرائعة (ليلى مراد) يتهادى إلى مسامعي عبرَ سماعات الـMP3 العتيق الذي أحتفظُ به منذ ١٠ أعوام كاملة، بينما كنت جالسًا في شرفةِ مكتبي في المقرّ الجديد لإدارة الطبِّ الشرّعي بتلك المدينة السّاحلية الصغيرة، أستمتعُ بنسماتٍ صيفية رقيقة نادرة الحدوث في مثل هذا الوقت من منتصف شهر يوليو.

كنت قد تطوّعتُ بالقيام بكافّة مهام المكتب الجديد لمدة شهرٍ كامل بمفردي، معاونةً مني لزميلي الذي يستعدّ لأداء امتحاناتِ ماجستير الطب الشرعي، وقد وجدتُها فرصة- أيضًا- لاستعارة شقّة صديق لي هنا، ممّا يتيحُ لي إحضار أسرتي والإقامة هنا كنوعٍ من التجديد، وهروبًا من حرّ المدينة التي أصبحت عبارة عن غابة إسمنتية مُحكمة الغلق بلا تهوية.

كانت المدينةُ الساحلية الصّغيرة هادئة، ومِن غير المعتاد حدوثُ جرائم كبرى بها، وينحصر عملُ الطبيب الشرعي غالبًا على توقيع الكشف الطبي الشرعي على مُصابي الحوادث المرورية من أجل قضايا التّعويضات، أو بعض مُصابي المشاجرات، وفي أحيان نادرة بعض حالات التشريح النّاجمة عن غرق شخصٍ مجهول الهوية.

كانت الأيامُ الأولى تبشّر بصيفٍ هادئ بلا قضايا أو أعباء، ولكنْ تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد تلقّيت إخطارًا من النيابة العامة بالتوجّه للمستشفى لإجراء الصفة التشريحية على جثمان طفلٍ مجهول الهويّة، وكانت هذه البداية لأسوأ كابوسٍ شاهدته منذ سنوات!

كانت المشرحةُ واقعة في طرفٍ منعزل من المستشفى، وعلى

الرّغم من بُعد المسافة بين بوابة المستشفى والمشرحة، إلّا أنّ رائحة تعفّن الجثثِ المميّزة والكريهة كانت منتشرةً في الأرجاء، وما إن وصلت للمشرحة حتى وجدتُ مجموعة من رجال الشرطة ووكيلَ النيابة الذي لم أقابله من قبْل، فتوجّهت إليه مباشرة، وألقيت عليه التحية، وبدأت بتعريف نفسي: د/ مصطفى جاهين- الطبيب الشرعي، أخبار حضرتك إيه؟

ردّ وكيل النيابة وهو يُخفي نصف وجهِه بمنديل معطّر، مُحاولًا حجب الرائحة الكريهة المنتشرة بالمكان مِن الوصول لأنفه: أهلًا بحضرتك يا دكتور، أنا (علاء المنشاوي) وكيل النيابة، أنا أوّل مرة أتْشرف بحضرتك، بسّ معلش المناسبة مش سعيدة.

ابتسمتُ وقلت: غالبًا شغلنا مفيهوش مناسبات سعيدة، إلّا يوم طلوعنا على المعاش.

ضحكَ وكيل النيابة، وردّ قائلًا: عندك حقّ يا دكتور، المهمّ الحالة دي يا دكتور عاملة قلق في المنطقة كلّها، الجثة لطفل مجهولِ الهوية، لسّه محدّش اتعرّف عليه، والناس لقوه النهارده الصّبح على شطّ مهجور.. مكانش في المياه علشان نقول غرق، كان على الرّمل، والناس لقوه من غير عينين، وإحنا بالمناظرة برضه لقينا فيه جروح جامدة عند العينين، الخبر انتشر وطلعِتْ

إشاعات إنّ فيه عصابة لسرقة الأعضاء والقرنية بتاعة العين، طبعًا إحنا مُنتظرين التشريح علشان نعرف نبدأ التحقيقات منين.

كانت التفاصيلُ التي سردها وكيلُ النيابة تبدو مقلقة، حتى قبلَ أن أفحص الجثمان، وهو ما جعلني أقرّر أن التّعامل مع تلك القضية لن يكون روتينيًّا على الإطلاق.

كانت الجثةُ لصبي في حوالي الرابعة من عمرِه، وكانت الجثةُ متعفّنة بصورة واضحة ممّا يدلّ على أن الوفاة حدثتْ منذُ يومين على الأقلّ، لا سيّما معَ ارتفاع حرارة الجو، وكان الصبي يرتدي ملابسَه كاملة، وهو ما يشير إلى أنّه ربما تمّ فقدانهُ من مكانٍ بعيد عن الشاطئ.

بفحصِ الجثة ظاهريًّا تبيّن أنّ العينين قد تمّ العبثُ بهما عقب وفاته، حيث لم أجدْ أيّ نزيف بجروح العينين، وعلى الرغم من أنّ حالة الجثة شديدةُ السوء من أثر التعفّن، إلّا أنّني استطعت تمييزَ عدم وجود جروحٍ واضحة بعموم الجثّة من شأنها إحداث الوفاة.

وبدأتُ بإجراء الصّفة التشريحية على الجثمان، وهو الجزءُ الأصعب في مثل هذه الحالات المتعفنة، وكانت عظامُ الجمجمة سليمة، وبإزالتها تبيّنت تحللَ المخ، وتحوّله إلى ما يشبه السائل،

وقمتُ عقب ذلك بفحْص العنق، فوجدت كسرًا بالعظم اللامي في مقدّمة العنق، وقد كان كسرًا حيويًّا، حدث بينما الطفل مازال على قيْد الحياة، ممّا يُشير إلى أنّ الوفاة ربما حدثت نتيجةَ الخنق بالضغط على العنق، وفحصتُ باقي أحشاء الصدرِ والبطن، ولم أتبيّن أية إصابات من شأنها إحداث الوفاة.

كما قمتُ بأخذ بعض العيّنات من الأحشاء ومحتويات المعدة؛ للبحث عن أيّة آثار للسموم أو المواد المخدّرة أو المنومة من باب الاحتياط.

كان سببُ الوفاة قد اتّضح؛ وهو الخنقُ بالضغط اليدوي على العنق، ولكنّني تعلمت أنّه في مثل هذه الحالات ينبغي عليّ أخذُ جزءٍ من عظام المتوفّى لإجراء فحوص الحامض النووي من أجل التعرف على هويّة الطفل المجهول، كما أخذت مسحةً شرجية من الطفل للبحثِ عن أية آثار لسائلٍ منوي ربّما تشير إلى حدوثِ تعدٍّ جنسي على الطفل، كما قمتُ بأخذ الجزءِ السفلي من الملابس الداخلية للطفل لنفس السبب على الرّغم من أنني لم أستطعْ تبيّن عما إذا كان قد تعرّض لاعتداء جنسي من عدمه؛ نظرًا لسوء حالة الجثمان المتعفّن.

عقبَ التشريح توجّهت إلى المكتب لإرسال العينات المأخوذة

للتحليل بالمعامل الطبية والكيماوية، وما إن وصلتُ للمكتب حتى أتاني اتصالٌ من وكيل النيابة للاستفسار عن مشاهداتي الأولية، فما كان مني إلّا أن أجبت: والله يا (علاء) بك الحالة مُمكن نستنتج منها إنّ الطفل مات نتيجة أسفكسيا الخنق الجنائي بالضغط اليدوي على العنق، أمّا موضوع سرقة القرنية والأعضاء فَدَه مُستبعَد لأنّ طريقة العبث بالعينين أدت لتدميرها بما فيها القرنية، وده مُمكن يقولّنا إنّ الحالة فيها عامل انتقام وتمثيل بالجثة، إنّما مش سَرقة أعضاء.

انتهت المكالمة بوعدٍ منّي بإصدار تقرير شامل في أسرع وقتٍ عقب انتهاء كافة التحاليل والفحوصات.

مرّ ما يقارب الأسبوعَ عقب تلك الواقعة، وقد أخبرني وكيلُ النيابة أنّ هناك بلاغًا يفيد باختفاء طفل له نفسُ مواصفات الطفل المجهول الذي فحصته، وأنّه قد فُقِد من أسرته في مدينةِ الملاهي بالمدينة، فطلبتُ منه إرسالَ الوالدين إلى مصلحة الطبّ الشرعي بالقاهرة لإجراء اختبارات الحامض النووي لبيان مدى قرابةِ الطفل المجهول لهما، وكان الخبرُ قد بدأ يأخذ أبعادًا جديدة حيث انتشر الذعرُ بين سكان المدينة والمُصطافين خشيةَ أن تكون هناك عصابة لخطف الأطفال وسرقة أعضائهم، وبالنسبة لي فقد ازداد قلقي حيث أنّ الجريمة قد ازدادت

تعقيدًا وعنفًا.

السبت ٢٣ يوليو، أجلسُ في منزلي مع أسرتي منهمكًا في تحضير حقائبنا استعدادًا للسفر إلى المدينة الساحلية، والبدْء في خطتي الطموحة لاستغلال فترة تواجدي هناك، ولكن يأتيني اتصالٌ من وكيل النيابة يُخبرني بالعثور على جثةٍ لطفلة، وأيضًا تمّ العبث بعينيها!

توقّفت عن حزم الحقائب، وارتديت ملابسي بسرعة، وأخبرت زوجتي أنني سأتوجّه بمفردي إلى مقرّ العمل لأنّ هناك حالة طارئة، فطلبتْ منّي أن أقوم باصطحابهم معي كما وعدتهم، ولكني كنت أشعر بالذّعر الشديد في داخلي، فقد كنت أشعرُ أنّ القاتل ربّما يكون في أيّ مكان، وربّما يكون أطفالي هم الضّحايا الجدد، لا قدّر الله.

قالت لي زوجتي: طيب مادام مش هتاخدنا معاك.. ممكن نروح مع أختي إسكندرية الأسبوع ده؟

رددتُ عليها بعصبية واضحة: مفيش إسكندرية ولا غيره، ومتخرجوش من البيت إلّا للضرورة القصوى، كلامي يتسمع.

أغلقت بابَ الشقة خلفي بعنف، ولأوّل مرة منذُ عملي كطبيب شرعي سمحْت لعملي أن يؤثّر على حياتي الشخصية،

وأن يجعلني شخصًا لا يُطاق!

وصلتُ إلى مشرحة المستشفى حيث قابلني وكيلُ النيابة، وأخبرني أنّ الجثة لفتاة في حوالي الخامسة من العمر، ترتدي ملابس السباحة، وقد تعرّفت عليها أسرتها بالفعل بعدما أبلغوا عن اختفائها على الشاطئ منذ ثلاثة أيام، وكانوا قد اعتقدوا أنها غرقت.

قمتُ بفحص الجثة التي كانت متعفّنة أيضًا، وفي هذه المرّة- أيضًا- اتّضح أنّ العينين قد تمّ العبث بهما عقبَ الوفاة وليس لغرض سرقةِ القرنية، كما تبيّن أنّ سبب الوفاة الخنق الجنائي باستخدام الضغط اليدوي على العنق.

قمتُ كما في الحالة السابقة بأخذ عيّناتٍ من الأحشاء للبحث عن آثار الموادّ المخدرة والمنومة والسموم، كما قمتُ بأخذ مسحاتٍ مهبلية وشرجيّة للبحث عن أيّ آثار تعدٍّ جنسي على الفتاة.

لم أكنْ قد أعددت بعدُ التقريرَ الطبي الشرعي الخاص بالحالة الأولى نظرًا لعدم ورود التقارير المعملية والكيماوية الخاصّة بها، وكان مِن المعتاد أنْ أنتظر حتى تردَ تلك التقارير دونَ استعجال مني، ولكن بعدما تبيّن لي بفحص الحالتين قررتُ

أن أقوم بالاتّصال شخصيًّا بمديري المعمل الطبي والكيماوي لاستعجال النتائج.

قمتُ بالاتصال بمديرة المعمل الطبي، وأخبرتها بظروف القضية، وأهمية نتيجة تحليل العينات بالنسبة لي، كما طلبتُ منها تحليل عيناتِ الحالة الجديدة في أسرع وقت، وقد تفهّمت الطبيبة موقفي ووعدتني ببذل أكبر جهدٍ مُستطاع لإخراج النتيجة في أسرِع وقت.

كذلك قمتُ بالاتصال هاتفيًّا بمدير المعمل الكيماوي، وطلبت منه الانتهاء من تحليل العينات الخاصة بالقضيّتين خلال ٢٤ ساعة، وقد أبدى- أيضًا- تفهّمه لموقفي، وكان هذا من حُسن حظي.

مرّت الأربع وعشرون ساعة التالية كأنّها دهر، ولأوّل مرةٍ منذ التحاقي بالطب الشرعي أشعر بهذا الفضول والترقّب بخصوص نتائج تحاليل أيّ قضية أعملُ عليها لأنّ جثتي الطفلِ والطفلة كانتا تحملان الكثيرَ من الغموض، وكانت الدلائلُ المتوفرة لدي تشير أنني بصدد جرائم بشعة، وأنّ ما سيظهر لدي من نتائج سيُفيد في القبض على الجاني، أو على الأقلّ منعه من ارتكاب جرائم مماثلة.

في تمام الثالثة عصرًا، تلقّيت اتصالًا من مديرة المعمل الطبي تخبرني أنّها قد قامت بنفسها بفحص المسحات المهبلية والشرجية المأخوذة من الجثتين، وعلى الرغم من تعفّن العينات وسوء حالتها إلّا أنها تبيّنت وجود آثارٍ لسائل منوي بالعيّنات، إلّا أنّها لم تستطع استخلاص الحامض النووي نظرًا لسوء حالة العينات.

تلك المعلومات زادتْ فضولي لمعرفة نتائج تحاليل المعمل الكيماوي ممّا دفعني للاتصال بمدير المعمل الكيماوي لمعرفةِ نتائج العينات، فأخبرني أنّ الفحص المبدئي للعيّنات الخاصة بالجثتين أثبت وجودَ آثار لمادة (ديازيبام)، وهي مادة مهدّئة ومُنومة.

كانت تلك المعلومات قد رسمتْ لديّ صورة تقريبية للجريمة، ونظرًا لخطورة المعلومات فقد قمت بإبلاغها تليفونيًّا لوكيل النيابة؛ لربّما تفيد في سرعة القبض على الجاني، وإنهاء هذا الكابوس البشع، وكان تصوري كالآتي: آلو يا (علاء) بك، لسّه واصلاني حالًا نتايج المعامل الطبية والكيماوية، النتايج أوضحت إنّه تمّ الاعتداء جنسيًّا على الطفلين، وللأسف مش عارفين نستخلص الحامض النووي من العيّنات علشان التعفّن الموجود، وكمان النتايج وضّحت إنّ الطفلين مُمكن يكون تمّ تخديرهم باستخدام مادّة منومّة تمّ دسُّها في عصير أو شيء أكلوه.

ردّ وكيلُ النيابة باندهاش: اللّي حضرتك بتقوله ده معناه إنّ إحنا قدام مُجرم محترف وعنيف، مش بسّ بيخطف الأطفال، لأ.. بيغتصبهم بعد تخديرهم كمان، طب ليه بيشوّه عيونهم؟

رددتُ بحيرة محاولًا إيجاد تفسير منطقي: والله ممكن بغرض الانتقام، ممكن يكون مريض نفسيًّا، وممكن يكون لأنّه بيعتقد إنّ صورته كجاني متخزّنة في عيون الضحايا وممكن تدلّنا عليه، ده طبعا احتمال بعيد لأنّ مفيش أبحاث أثبتت فعلًا وجود صور واضحة للجناة مطبوعة في عيون ضحاياهم، بسّ كلها احتمالات.

ردّ وكيل النيابة قائلًا: معنى كده إنّ عندنا جاني ذكر، بيستهدف الأطفال ويخطفهم من الأماكن المزدحمة، وغالبًا عايش لوحده وبيتحرّك لوحده، شكله غير مثير للشبهات، يعني ممكن يكون حسن المظهر ومتوسط العمر، .أعتقد كده ممكن نطمّن الناس إنّ الجرائم مش وراها عصابة لسرقة الأعضاء.

قاطعته بسرعة قائلًا: لاااااا، حضرتك سيب الناس تفتكر إنّ الجناة عبارة عن عصابة، ده هيخلي الجاني يتحرّك بثقة أكبر لأنّه هيعتقد إنّنا مش بندوّر عليه، وممكن يرتكب أخطاء تدلّنا عليه، حضرتك اطلب من الشّرطة عمل كمين على مداخل ومخارج

المدينة، أي ذكر مقيم بمفرده أو معاه طفل أو طفلة نايمين، ده مُشتبه فيه، كمان خلّي بالك إنّ الجاني غالبًا بيرتكب جريمته في عربيته في الأماكن النائية علشان محدّش يشوفه، ويمكن بيتعمّد إننا نلاقي الجثة بعد فترة علشان الأدلّة تكون اختفت بتأثير التعفّن والتحلل، ويمكن يكون الجاني على قدْر من التعليم والثقافة، كمان ممكن يكون مريض نفسي وبيستخدم نفس الدّوا اللي بيخدّر بيه ضحاياه.

بدا الارتياح على صوت وكيل النيابة بعدما اتّضحت الصورة نسبيًّا أمامه، وقال: إن شاء الله النهارده هيبقى فيه كماين ودوريات في كلّ حتة، وهبلّغ الشرطة تنشر مُخبرين في الفنادق وشقق الإيجار علشان تعرف إذا كان في أشخاص بالمواصفات اللّي قلنا عليها، وربّنا يكرم ونعرف نوصل لمشتبه فيه يبقى طرف الخيط اللّي بندوّر عليه.

كان هناك بصيص من الأمل والتفاؤل قد ظهرَ في القضية، وكنت قد بدأتُ أشعر بالرضا عن النتائج التي توصّلت إليها، وبالفعل أثناءَ جولتي في المدينة لاحظتُ التواجدَ الأمني المكثّف على مداخل ومخارج المدينة، وقرب الأماكن النائية منها.

للأسفْ لم يدمْ تفاؤلِي لأكثرَ من يومين عندما تمّ إبلاغي أنّ هناك جثة ثالثة لطفلةٍ وجدَت في قلب المدينة ممّا أثار حالةً من الهلع بين سكان المدينة، وظهر أنّ القاتل لا يوجد ما يردعه عنِ ارتكاب جرائمه حتى معَ تكثيف التواجد الأمني.

شعرتُ بمرارةٍ رهيبة لفشلي في المساعدة على الإيقاع بالقاتل، وأنّ المعلومات التي أعطيتها لوكيل النيابة لم تكن كافيةً للإيقاع بالقاتل، ولكنّها على العكس أسهمتْ في سرعة حدوث جريمة أخرى، وربما لأن القاتل شعر بالتهديد، أو ربّما لأنه شعر بمزيدٍ من الحرية بعدما ذاع أنّ المشتبه بهم عصابة لسرقة الأعضاء، لاَ أعلم!

توجّهت للمرة الثالثة إلى المشرحة، وعندما رأيت الجثةَ كان ما رأيته على الرّغم من كونه بشعًا ومخيفًا، إلّا أنّه كان سيفيد القضية إلى أقصى مدى، وربّما لأكثر ممّا كنت أتخيل!

كانت الجثةُ لفتاة في الثالثةِ من العمر تقريبًا، وقد تعرّف عليها أحدُ الشهود، وتبيّن أنّها ابنةَ أحد سكان المدينة، وقد اختفت ليلة أمس من أمام منزلها، وكانت بكامل ملابسها، ولكن هذه المرة كانت الجثة في حالةٍ جيدة حيث قدّرت أنّ الوفاة قد حدثت منذ ١٢ ساعة، وكما كان في الجثتين السابقتين تبيّنت

أن العينين قد تمّ العبثُ بهما عقب الوفاة، ولكن هذه المرة كان العبثُ بالعينين أشدّ عنفًا، كما تبينت وجودَ آثار عضٍ آدمي بصدر الفتاة وبطنها، وما زاد تألّمي وحسرتي أنني قد تبيّت وجود اعتداءٍ جنسي على الفتاة، وكان مصحوبًا بإصابات جسيمة بأعضائها التناسلية.

كان سببُ الوفاة في هذه الحالة- أيضًا- هو الخنق الجنائي باستخدام الضغط اليدوي على العنق، ولكن في هذه المرة تبيّنت وجودَ علامات أصابع الجاني حول عنق الفتاة، وكان من المرجّح أنه أعسر.

قمتُ بأخذ مسحات مهبلية وشرجيّة هذه المرة بغرض البحث عن آثار سائلٍ منوي واستخلاص الحامض النّووي منه حتى يمكن مقارنتُه بالحامض النووي للجاني إنْ تمّ القبض عليه، كما قمتُ بأخذ عينات من الدّم والبول للبحث عن آثار موادّ مخدرة أو منومة أو سموم.

كانت هذه الحالة تحمل الكثيرَ من الدلائل التي أخبرتُها لوكيل النيابة شفهيًّا في مكالمةٍ هاتفية عقب الانتهاء من فحص الحالة مباشرة: أيوه يا (علاءً) بك، الجثة زيّ القضيتين اللي قبل كده، غالبًا تمّ خطف الفتاة وتخديرها باستخدام منوّم، بسّ

العنف اللي واضح على الجثة دي أكبر وأشد.

ردّ وكيل النيابة: الواضح إنّ الجاني اتفاجئ بالتّمشيط الأمني والكماين، وده أغضبه وأجبره إنه يتخلص من الجثة بسرعة، وفي مكان داخل المدينة.

أكملتُ أنا حديثي: ده مؤكد، برضه الجاني غالبًا أشول، وبالنسبة لموضوع تشويه العينين، فمِن الواضح إنّ الجاني بيعتقد إنّ الضحايا شافوه، وإنّ عيونهم حفظت شكله، وبالتالي بيعتقد إنّه بتشويه العينين قِدِر يتخلّص من إمكانية التعرّف عليه، الفكرة دي مش مُمكن تخطر لشخص عادي.

ظهرَ الحماس على صوت وكيل النيابة وهو يقول: ده غالبًا شخص مؤهّل عالي، أو مطّلع على أبحاث ومقالات طبية، أو حتى مسلسلات بوليسية متخصّصة، إحنا كده مُمكن نقلل عدد المشتبه فيهم بصورة كبيرة.

رددتُ وقلت له: بالظّبط، الجاني رجل في الثلاثينيّات أو الأربعينيّات من عمره، يتحرك بمفرده، أشول، شكله مهندم، عنده عربية خاصّة بيه، غريب عن المدينة غالبًا، بالنسبة لي أنا هستعجل نتائج العينات وهتبقى النتايج عندي خلال يومين بالكتير.

أنهينا المكالمة على اتفاقٍ بتبادل أيّ مستجدات أو معلومات تفيد في الوصول إلى الجاني.

مرّ يومٌ كامل منذ تلك المكالمة ولم يصلني أيّ اتصال يفيد بحدوث جديد في القضية، وعلى الرغم من قيامي بكلّ ما يجب على الطبيب الشرعي القيامُ به في مثل هذه الحالات، إلّا أنني كنت أشعر بأنّ هناك المزيد يُمكنني القيام به، لا أعلم ما هو، حتى أنّني قد قمتُ بالنزول إلى الشارع والسيْر على غير هدى ربّما تأتيني خاطرة أو فكرة ما تساعدني على حلّ هذه القضية، وكنت أشعر بحزن رهيب على الثلاثة أطفال، وما انتهى إليه حالهم، فلم أكنْ أراهم مجرّد جثث أفحصها بشكل روتيني واحترافي، ولكنني تخيّلتهم أحياءً يلعبون ويضحكون ويكبرون ويكون لهم مستقبل، وتخيّلت مقدار الألم والرعب الذي شعرت به أُسَرهم عند فقدانهم ومقدارَ الحزن الذي أصابهم بعدما عرفوا مصيرهم، وربّما عزائي الوحيد أن الأطفال ربما لم يشعروا بشيء عندما أتتِ النهاية المأساوية نظرًا لكونهم تحت تأثير دواء منوّم.

كنتُ أشعر بمزيج من الغضب والخوف مِن وجود مثلِ هذه الوحوش في عالمٍ يعيش فيه أطفالي، لماذا تقفُ القدرات البشرية أمامَ كشف مثل هذه الجرائم؟

أعلم أنّ العدالة المُطلقة بيدِ الله وحده، هو مَن سيقتصّ لكل مظلوم ومجني عليه، يومّ القيامة بالقسطاس المستقيم دونَ الحاجة لوجود شهودٍ أو هيئة دفاع أو قضاة من البشر، حتى أنّ الشهود ضدّ الظالم والجاني سيكونون من لحمه ودمه {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، حقًّا ما أعظم رحمةَ الله وعدله وانتقامه!

كانت الآيةُ الكريمة تتردّد في عقلي بقوة مرارًا وتكرارًا، ربما لو اخترع البشر آلةَ تجعل أعضاء الجاني تنطق بالحقيقة، عندها سيعمّ الأمن والعدل أرجاء العالم،.. ربما !

في هذه اللحظة، راودتني فكرةٌ غير تقليدية على الإطلاق، بل قل فكرة جنونية، ممّا دفعني بصورة تلقائية بالاتّصال بوكيل النيابة قائلًا: السلام عليكم (علاء) بك، معاك الدكتور (مصطفى جاهين).

ردّ وكيل النيابة بانزعاج: أهلًا يا دكتور، خير.. في نتايج ظهرت عندك واللّا إيه؟ بسّ الساعة ٦ الصبح يعني، وصعب تكون حاجة جت لك دلوقتِ.

جاوبته بحماسٍ متجاهلًا ملامح الضيق في صوته: لا مفيش نتايج وصلتْ لسَّه، بسّ يا ترى حضرتك وصلتوا لمُشتبه فيه في

القضية؟

ردّ بضيق: إمبارح حدّدنا ٥ أشخاص مُمكن تنطبق عليهم صفات المشتبه فيه، والشرطة هتجيبهم النهارده للنيابة، ونبتدي التحقيق معاهم.

رددتُ بسرعة قائلًا: بعد إذن حضرتك، عاوز أحضر معاكم التحقيق.

قال وكيلُ النيابة بنبرة حادّة: بسّ حضرتك مش من المعتاد حضور الطبيب الشرعي أثناء التحقيقات.

قلت له: القضية دي في حدّ ذاتها غير تقليدية، وعلشان نوصل فيها لنتيجة محتاجة إجراءات غير تقليدية، أنا عندي فكرة مُمكن تسهّل تحديد الجاني.

ردّ باقتضاب: وإيه هي الفكرة دي؟

جاوبته بسرعة: الجاني انتزع عيون المجني عليهم لأنّه اعتبرها شاهد على جريمته ظنًّا منه إننا عندنا جهاز ممكن يحلّل بيانات موجودة متسجلّة في العيون مُمكن توصّلنا لصورة القاتل، بسّ العكس بقى لو حصل هيبقى مفاجأة ليه، إيهامه إنّنا عندنا جهاز ممكن يحلّل الصور اللي متسجّلة في عيون الجاني نفسه، ولوْ وجدنا صورة الأطفال متسجّلة يبقى هو الجاني.

ردّ وكيل النيابة باستغراب: وهوّ في جهاز كده فعلًا؟!

قلت له: لا مفيش.. بسّ الجاني ميعرفش، وبمجرد الإشارة لوجود جهاز زيّ ده مُمكن يخلي الجاني يفقد هدوء أعصابه، وده مُمكن يوصّلنا لاستدراجه لاعترافات، أو أيّ حاجة تفيد القضية.

كانت الفكرة مجنونة، ولكن وكيل النيابة قبلها على مَضض، واتفقنا أنّني سوف أحضر التحقيقات مع الخمسة المُشتبه بهم، وسأقوم في نهاية التحقيق مع كلّ مُشتبه به بسؤال المشتبه به عن إمكانية خضوعه لفحص لعينيه من أجل التأكّد من صدقه، والجاني فقط هو مَن سيكون لديه خلفية عن نظرية انطباع صور الجناة في عيون المجني عليهم.

حضرتُ إلى مقرّ النيابة في الميعاد المتّفق عليه، تبادلت التحية مع السيد وكيل النيابة الذي بدت عليه علاماتُ الضيق من جرّاء تطفّلي على عمله، ولكنّني كنت مصرًّا على الحضور وتنفيذ خطتي التي أخبرتُه بها، كما أشرتُ عليه بأن يجعل التحقيق يدور حولَ سرقة الأعضاء فقط، كما طلبت منه أن يجعل كلّ مشتبه به يقوم بكتابة اسمه وعنوانه حتى نحدّد مَن هو الأعسر بينهم، وهذا ربّما يضيّق احتمالات تحديد المشتبه به.

تمّ التحقيق بالفعل مع ثلاثةٍ من المشتبه بهم، كلهم كانوا نظريًا يحملون بعض صفات الجاني، إلّا أنهم وفي أثناءِ التحقيق بدا عليهم التوترُ والقلق، وعندما كنت أطلبُ منهم الخضوع لفحص مُحتمل لعيونهم من أجل تحديد مصداقية أقوالهم؛ كانوا يوافقون بلا تردد.

كان المُشتبه به الرابع رجلًا مهندمًا في أوائل العقد الرابع من العمر، وكان يبدو هادئًا، ورابط الجأش، بصورةٍ مريبة على الأقلّ بالنسبةَ لي، وقد حاولت أن أتفحّصه بعمق أثناء التحقيق ربّما ألاحظ أيةَ إصابات خفيّة أو خدوش بيديه من جرّاء التعامل بعنف مع الضّحية الأخيرة، إلّا أنني لم أستطع إيجادَ أي دليل، وبمجرّد أن قارَبَ التحقيق من الانتهاء وقامِ المشتبه به باستخدام يده اليسرى لكتابة اسمه وعنوانه، حتى نظر إليّ وكيل النيابة مُعطيًا لي الإذن ببداية دوْري في التحقيق، فوجّهت حديثي للمشتبه به قائلًا: أستاذ (....) هل عند حضرتك استعداد إنّنا نفحص عينك بجهاز لتحديد مدى صدق المعلومات اللّي أدليت بيها في التحقيق؟

ظلّ المُشتبه به هادئًا وهو يجيب: لا أبدًا تحت أمركم، بسّ أفهم إيه فكرة الجهاز.

رددتُ بهدوء: فكرة الجهاز إنّنا هناخد صور من القرنية والشبكية في عينك، ونحلّلها بجهاز خاص، الجهاز ده هيظهر لنا إذا كان حضرتك رأيت الأطفال المجني عليهم واللّا لأ.

بدتِ الريبة على وجْه المشتبه به، وقال: بسّ أنا ممكن أكون شفتهم صدفة، وبالتالي ده مش إدانة ليّا.

رددتُ مسرعًا: مستحيل تكون شفتِ الضحايا كلّهم صدفة لأنّ أماكن تواجدهم مختلفة، والفترة الزمنية لتواجدهم برضه مختلفة، ولو حضرتك شفتهم كلّهم يبقى ده دليل إنك الجاني، بالإضافة لكده إحنا عندنا صورة تقريبية للجاني عرفنا نستخرجها من الضحايا.

في هذه اللحظة، بدأ المشتبه به يفقد هدوءه، وإنْ حاول أنْ يبدو متماسكًا وهو يقول: بسّ اللي سمعته إن الضّحايا اتسرقت عيونهم، يا ترى عرفتوا تجيبوا الصور منين؟

كان سؤاله هذا يعني أنّه على درايةٍ بعملية استخراج الصّور من عيون الضحايا ممّا جعلني أفاجئه بنظرية وردتْ على خاطري في لحظتها: ده خطأ شائع في الأبحاث العلمية عن الموضوع ده، حضرتك العيون زيّ الشاشة والكيبورد في الكومبيوتر، وسائل إدخال وعرض بيانات، وليست وسائل حفظ بيانات، أماكن

حفظ البيانات بتبقى في الهارد ديسك اللّي هو المخ في البشر، وإحنا عرفنا نحلّل البيانات المتخزنة في مخّ الضحايا بجهاز جديد عندنا.

ظهرَ الاضطراب واضحًا على المشتبه به بعدما تفاجأ بنظريتي ممّا جعله يقول بتحفّز: أوّل مرة أسمع عن الموضوع ده، وواضح إنّها كلها نظريات وخيال علمي.

رددتُ عليه بصرامة: رفضك الخضوع للفحص ده يعتبر دليل على تورّطك في الجريمة بصورة أو بأخرى.

ردّ عليّ المشتبه به في عصبية واضحة: أنا مش هعمل أيّ حاجة إلّا في وجود محامي يحفظ حقوقي من الهَبل اللّي أنت بتقوله، وانتوا معندكمش أيّ دليل ضدّي في موضوع سرقة العيون والأعضاء ده.

في هذه اللحظة قاطعه وكيلُ النيابة قائلًا: ومين جاب سيرة سرقة أعضاء، إحنا بنتكلّم عن خطف ٣ أطفال وتخديرهم باستخدام منوّم في عصير، ثمّ الاعتداء عليهم جنسيًّا، وقتلهم خنقًا باستخدام إيدك الشّمال، وتشويه عيونهم بغرض عدم استخراجنا لصورةِ الجاني منها، وبعد كده التخلص من الجثث في أماكن نائية بغرض إفساد أيّ دليل مادي موجود على

الجثث.

في هذه اللحظة، بدا الذعرُ على وجه المشتبه به وهو يقول: أنا معملتش كده، مفيش دليل، ومفيش شهود.

تدخّلت أنا مرةً أخرى في الحديث، وقلت: الأدلة موجودة، الحامض النووي اللي استخرجناه من جثة المجني عليها الأخيرة اللّي ملحقتش تتخلّص منها، ممكن لو فتّشنا بيتك وعربيتك نلاقي جوانتيات طبية استخدمتها، وده اللي صعّب على المعمل الجنائي استخراج بصماتك مِن على الجثث، ومش بعيد نلاقي كام شريط منوّم valium أو valinil (ديازيبام) في الشقّة اللّي أنت مأجّرها، أو في عربيتك استخدمتهم في تخدير الأطفال، الأهمّ من ده كله إننا ممكن نلاقي آثار دم المجنيٍ عليهم، أو آثار سائل منوي خاصّ بيك في عربيتك اللّي غالباً كانت مسرح لجرايمك.

في هذه اللحظة، انْهارَ المشتبه به وهو يقول: أنا عاوز محامي، أنا مش هتكلّم إلّا في وجود محامي، محدّش يقدر يلمسني، ولا يعمل حاجة، انتوا متعرفوش أنا مين؟

قاطعه وكيلُ النيابة غاضباً: إحنا عرفنا فعلاً أنت مين، أنت من اللحظة دي المتّهم الوحيد في ٣ قضايا خطف واعتداء

جنسي وقتل، والفايدة الوحيدة للمحامي بتاعك إنّك تسيب معاه وصيّتك قبل ما تروح حبل المشنقة.

ثمّ أمر وكيلُ النيابة أفرادَ الشرطة المتواجدين باصطحاب الجاني إلى مكان الاحتجاز، قبل أن يلتفت إليّ مبتسمًا وهو يقول بعرفانٍ واضح: يا دكتور، حضرتك فعلًا كنت خيرَ شريك في القضية، وبذلت فيها مجهود كبير، ويكفي إنّك لم تكتفِ بإنّك تقعد في مكتبك وتقوم بشغلك وبسّ، أنت تطوّعت للقيام بما هو أكتر من شغلك، وده نادرًا ما بيحصل، أنا آسف على أيّ ردّ فعْل مني ضايقك.

وانتهى لقاؤنا باتفاق على ضرورة إنهاء كافة التقارير الطبية الشرعية الخاصّة بالضحايا في وقت قصير، مَصْحوبة بكافّة الأدلة الطبية الشرعية الممكنة التي من شأنها إدانة الجاني بصورة لا شك فيها.

عقبَ ذلك شعرتُ بارتياح وسعادةٍ غامرة لانتهاء هذا الكابوس، وكنت أعلمُ أنّ العالم مليء بالمزيد من هذه الوحوش البشرية التي ربّما تُحيل حياة أيّ أسرة إلى جحيم ومأساة حقيقية، إلّا أنّ إحساسي بالقبض على أقربِ هذه الوحوش من بيئتي وأسرتي جعلني أشعرُ بالرضا عن نفسي وعن عملي.

كان هناك مهمّة أخرى لا تقلّ صعوبة عن الإيقاع بالجاني، طبعًا عرفتموها، إنّها محاولة الاعتذار لزوجتي عن تصرّفاتي العصبية معها أثناءَ أحداث القضية، توجّهت بسرعة إلى منزلي، وعندما وصلت كانت الساعة قد قاربتْ منتصف الليل، وكانت زوجتي وأطفالي نائمين، أيقظتُ زوجتي برفق وقلت لها: أنا آسف.. حقّك عليّا.. مكانش قصدي اتعصّب عليكِ، وإن شاء الله بكره نروح المصيف زيّ ما وعدتك.

نظرتْ لي وقد بدا عليها الاستغراب: أنت جاي تصحّيني علشان تتأسّف!؟ كنت تستنّى لغاية الصبح!!

رددتُ مُحاولًا إضفاء المرح على كلامي: مقدرش أنام وأنا مزعّلك.. يجيلي كوابيس وأنا نايم.

قالت مبتسمة: وكمان بتستظرف!! أنت عمومًا متعاقب.

قلت لها مندهشًا: متعاقب ازّاي يعني؟!

ردّت بسرعة: طول فترة المصيف أنت مسئول عن العيال، أكل وشرب وفسحة، أنا مليش دعوة بأي حاجة طول فترة المصيف.. لا طبيخ ولا غيره.

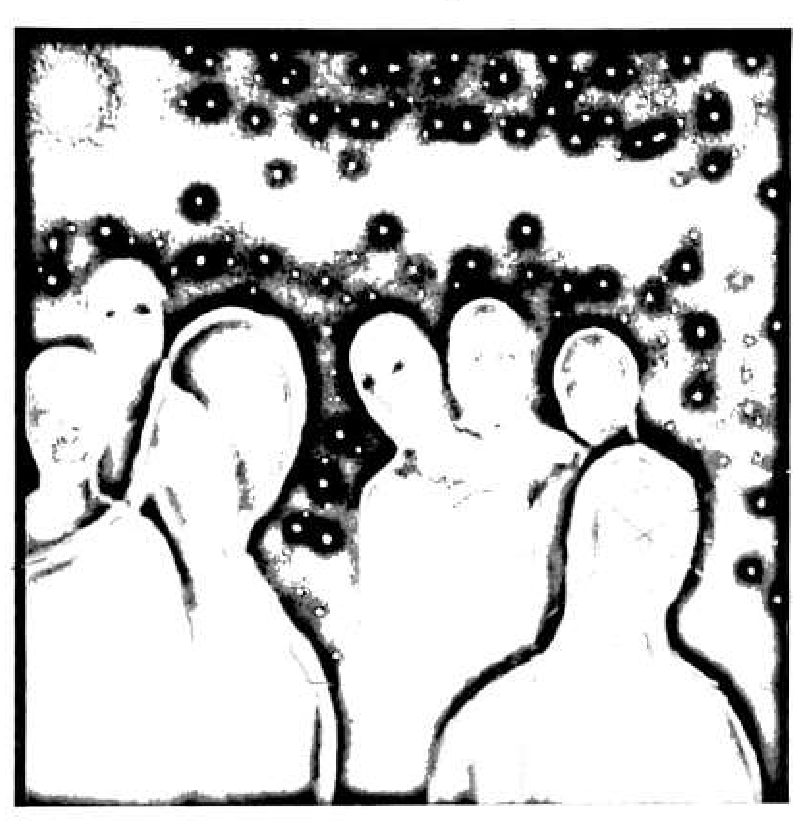
رددتُ ضاحكا: وأنا راضي بالعقاب.. حاجة تانية؟

قالت لي: وبكره الصبح تحضير الفطار عليك.

رددتُ مبتسمًا: حاضر.

نظرتْ لي بشك: أنت إيه اللي حصل لك؟ محدّش بيسمع كلام مراته كده فجأة. قلت لها ضاحكًا: أنا غيّرت اسمي، وبقى اسمي (محدش)!

رسالةٌ من العالم الآخر



السادة والسيدات الذين مازالوا على قيد الحياة،

تحية طيبة وبعد،

يسرّنا نحن معشرَ الموتى أن نوضّح لكم بعضَ النقاط التي أصبحت مثارًا للشائعات والخيالات لديكم، ونؤكّد لكم أنّه لا صحّة لها على الإطلاق.

على سبيل المثال، وجوه الموتى البيضاء لا تعني أنّهم راضون عن حالهم، أو أنّ خاتمتهم جيدة، وجوهُهم بيضاء لأنّها شاحبة، لأنّه لا دماء تجري فيها بعد الآن، فرجاءً توقّفوا عن قول

(وجهه كان منيرًا كالقمر عند وفاته).

ثمّ إنّه لا يوجد ميّت مبتسم، تلك الابتسامة نتيجة انكماش عضلاتِ الوجه بعد الوفاة، لا أكثر ولا أقلّ، فلا يوجد ما يدْعو للابتسام عندَ الموت ومفارقة الأحباب والتوجّه إلى العالم الآخر مِن أجل تلقي الحساب العادل أمام الله.

كما أنّ أجساد الجميع تبْلى عقبَ الوفاة، وتتحلّل، ويصدر عنها رائحةٌ كريهة، طبعًا عدا أجساد الأنبياء والمُرسلين؛ عليهم الصلاة والسلام، ومَن يُخبركم أنّه رأى جثة لا تبْلى، أوَ يصدر عنها رائحة عطرة بعدَ عدّة أسابيع أو شهور من الوفاة؛ فانْصحوه بالتوجّه فورًا لأقرب طبيبٍ لتلقي المشورة الطبية والعلاج اللازم.

وممّا لا شكّ فيه أنّ طريقة الوفاة وملابساتِها لا تعبّر- بأيّ حال مِن الأحوال- عنْ مصير الميت في الآخرة، ولا أنّها دليلٌ على حُسن الخاتمة، أو سوئها، فكمْ من صالحينٍ وأبرياء كانت ملابساتُ وفاتهم سيئة ومؤلمة، وكم مِن طغاة ومُذنبين ماتوا على فراشهم، وكانت جنازاتُهم مُفعَمة بالورود والرياحين. للحساب في الآخرة حساباتٌ أخرى غير حسابات البشر.

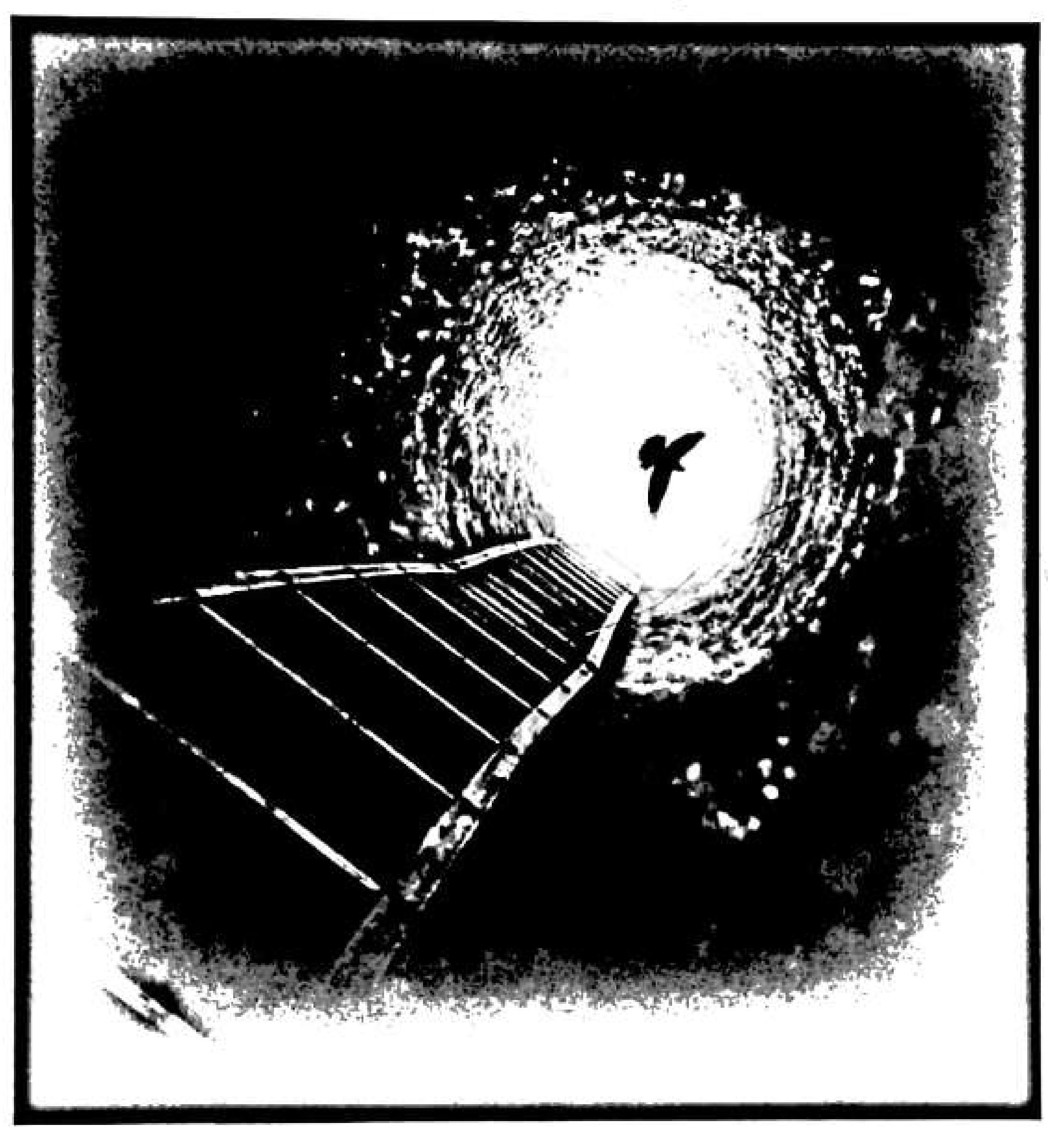
وأخيرًا، نحن لا نتحدّث مع الأحياء ولا نخبرُهم بشيء،

وخصوصًا معَ الأطباء الشرعيّين، نحن فقط نتركُ لهم حريةَ أخذ الانطباعات عنّا، والاجتهاد في تفسير ما يرونه.

شكرًا لكم لحُسن استماعكم، ونلقاكم على خيرٍ عندما يحين الأجلُ لذلك.

القضيةُ الرّابعة

(متّهم، بريء، ميت)



لأوّل مرةٍ منذ بدأتُ عملي كطبيبٍ شرعي منذ عدّة سنوات، اختلطت دموعي التي غلبتني بدماءٍ تسيل من جثمانٍ أقومُ بإجراء الصفة التشريحية عليه، وعلى الرّغم من أنّ معرفتي بصاحب الجثمان لم تتعدّ الأسبوعين، إلّا أنّها كانت لحظةً قاسية ومُحزنة حقًّا، وعادت بذاكرتي إلى الوراء قليلًا!

كنتُ جالسًا في ذلك الصباح بمكتبي الصغير في إدارة الطبّ الشرعي بالمدينة الساحلية الهادئة، منتظرًا قدومَ أيّة قضايا لمباشرتها، وكنت مازلت المسئولَ عن إنجاز كافّة القضايا في المكتب؛ نظرًا لأنّ زميلي الطبيب الشرعي لم يكنْ قد أنهى امتحانات ماجستير الطبّ الشرعي بعد.

ما هي إلّا دقائق حتى أتاني الموظفُ الإداري بالمكتب بملفٍّ صغير يحوي مذكرةَ النيابة الخاصة بإحدى القضايا الجديدة، باختصار مطلوب الكشفُ الطبي الشرعي على فتاةٍ في السابعة عشرة من عمرها لبيان عمّا إذا كانت قد تعرّضت لاعتداءٍ جنسي من عدمه، وعمّا إذا كانت مازالت عذراءَ من عدمه، ومطلوب أيضًا تحديدُ زمن الواقعة، واتّخاذ كافّة الإجراءات الطبية الشرعية المناسبة لإنجاز القضية.

كانت كلّ تلك التفاصيل مُعتادة، ولا يوجد بها ما يثيرُ الفضول، ولكن معلومة واحدة هي ما أثارت فضولي، المتّهم هو والدُ الفتاة، نعم.. الفتاةُ تتّهم والدها بالاعتداء عليها جنسيًّا، وهذا ما جعلني أتأهّب بشدة عند إجرائي الفحص الطبّي للفتاة، فعلى الرغم من أنّ كلّ الاحتمالات واردة في هذه القضية، إلّا أن الوصولَ للحقيقة في هذه القضية غيرُ سهلٍ على الإطلاق.

دخلتِ الفتاة إلى المكتب، ومعها مندوبٌ من النيابة العامة، فطلبْت من مندوب النيابة الانتظارَ بالخارج حتّى انتهائي من فحص الفتاة نظراً لحساسية الموقف واحترامًا لكرامتها، وما إن خرج المندوبُ حتى بدأتُ في أخذ معلوماتٍ بسيطة عن الواقعة، وكانت روايتها باختصار أنّه منذ يومين عاد والدُها في وقت متأخّر ليلًا وهو في حالةٍ عقلية غير طبيعية من جرّاء تعاطي المواد المخدّرة والحشيش، واقتحم غرفتها بينما هي نائمة، واعتدى عليها جنسيًّا، على الرغم من توسّلاتها له بتركها، وقام بتهديدها بقتلها لو أبلغت أحدًا، وعندما سألتُها أين كان باقي أفراد العائلة أخبرتني أنّها تعيش بمفردها في المنزل مع والدها بعد أن هجرتْ والدتها المنزلَ منذ عام نظراً لخلافات عائلية، ولسوء أخلاق والدها، وأنّها الابنة الوحيدة لأبويها.

بالطّبع، كانت الفتاة تبدو وكأنّه قد تمّ تلقينُها الحديث، ولكني لم أشأ أنْ أستبق الأحداث، وقمت بتوقيع الكشفِ الطبي الشرعي عليها، وبالفعل تبيّنت أنّها قد تعرضت لاعتداءٍ جنسي أفقدها عذريّتها، ويتزامن معَ تاريخ الواقعة الذي ذكرته، كما قمت- أيضًا- بأخذ مسحة مهبلية منها لتحليلها بالمعمل الطبي المركزي لبيانِ ما إذا كان هناك ثمّة آثارٌ لسائل منوي من عدمه، وفي حالة وجود أيّة آثار يمكن استخلاص الحمض النووي منها،

ومقارنتها بالحامض النووي للأب أو الجاني، أيًّا كان.

وبعدَ انتهائي من فحص الفتاة خَطَرَ ببالي أنْ أسألها سؤالًا، فقلت لها: الملابس الداخلية اللّي كنتِ لابساها ساعة الحادثة راحت فين؟ وعملتِ فيها إيه؟

بدا الارتباكُ على وجه الفتاة وهي تجيب: أنا لمّا حصلت الحكاية دي تاني يوم رحت لأمّي خلّتني اسْتحمى، وغسلت هدومي كلّها من الدم والقرف.

سألتها باهتمام: أمّك قالت لك استحمّي؟!

ردّت بتلقائية: أيوه يا دكتور، وخلّتني اتشطّف بمطهّرات برضه علشان ميحصلش حمْل.

كان يبدو من حديث الفتاة مدى اهتمامِها بالتفاصيل، وكذلك حرص والدتها على طمْس بعض الأدلة التي قدْ تفيد في التحقيق، ممّا جعل الشكّ يساورني، ولكنّي كنت لا أملك سوى كتابة التقرير وفقًا للأدلة المادية الماثلة أمامي، وليس بناءً على تخمينات أو شكوك.

انصرفتِ الفتاة، وكتبتُ التقرير الخاص بها، والذي خَلُصت فيه إلى أنّه من الجائز حدوثُ الواقعة وفقًا للتّصوير والتاريخ الوارديْن بمذكّرة النيابة، وأرسلت التقرير للنيابة في اليوم التالي.

مرّ أسبوع قبلَ أن أتلقّى قضية مُرسلة إلى المكتب تحمل نفسَ أرقام القضية التي حضرت فيها الفتاة، وكان المطلوبُ في مذكرة النيابة هذه المرة هو توقيعَ الكشف الطبي الشّرعي على المتهم (الوالد) لبيان حالته الصّحية والعقلية والنفسية، وكذلك لسحب عيّنات دم وبول منه لتحليلها للبحث عن أيّة آثار لمواد مخدرة أو منومة.

كان المطلوبُ في هذا الجزء من القضية سهلًا نسبيًّا، حيث أنّ كل ما عليّ هو التيقّن من أنّ المتهم واعٍ ومُدرك، وبكامل قواه العقلية، والتحاليل سوف يتمّ إجراؤها بمعرفة المعمل الكيماوي، فطلبت من الموظف المختصّ إدخالَ المتّهم إلى المكتب لبدء الكشف الطبي الشرعي.

وما هي إلّا لحظات، وقد دخل المكتب رجلٌ في أواخر الخمسينيّات من العمر، أشيب الرأس، متوسط القامة، ويكسو وجهه الحزن والإرهاق، وقد لاحظتُ وجود أصفادٍ في إحدى يديه تربطه بأحد أفراد الشّرطة، فطلبتُ من فردِ الشّرطة خلعَ الأصفاد من يدِ المتهم، والانتظار خارج المكتب، فقال فرد الشرطة بغلظة: مينفعش يا دكتور.. المتّهم عهدة عليّا ومينفعش أسيبه.

رددتُ عليه بحزم: المتّهم من اللحظة دي في عهدتي أنا، ومش هيتكشف عليه والكلابشات في إيده، ولا أنت هنا حفاظًا على كرامة وحُرمة المريض.

شعر فردُ الشرطة بالحرج، فاستجاب لي على مضض، وخرج من المكتب وأغلق الباب خلفه، فبدأت أنا في سؤال المتّهم عدّة أسئلة عن اسمه وسنّه وعنوانه، وبعض الأسئلة عن بعض الأحداث العامة القريبة والبعيدة، وطلبت منه إجراء بعض العمليات الحسابيةَ البسيطة، ولكنّي لم أتطرق إلى أية أسئلة خاصة بالقضية، وعقبَ انتهاء الأسئلة كنت قد تأكّدت من سلامة قوه العقلية، فطلبت منه الخروج لكي يتمّ سحب عيّنات الدم والبول منه بمعرفةِ الموظف المختص، فما كان من المتّهم إلّا أنْ قال: والله العظيم يا دكتور أنا عاقل ومخّي سليم، والله عمري ما كنت عاقل وبفكّر صحّ قدّ اليومين دول، حتى المخدرات والبرشام والحشيش بطّلتهم من زمان، وحللوا لي وانتوا هتعرفوا إنّي بأقول الصدق، بسّ أنا عاوزك تسمعني يا دكتور.

كنت في العادة أتجنّب الخوض في أيّ حوارات مع المتهمين في مثل هذه القضايا ممّا دفعني للقول: معلش يا حاج، حضرتك تستريح برّه لغاية ما حدّ ياخد منك العينات، أنا اللّي عليّا عملته، وبعدين اللي عندك قوله في النيابة.

ردّ المتهم متضرّعًا: يا دكتور الدكاترة زمان كانوا بيقولوا عليهم (حكماء)، يعني بيعرفوا يوزنوا الأمور مش بسّ يكشفوا على العيانين، وأنت شكلك ما شاء الله بتعرف في الأدب والأصول، اسمعني إلهي لا يسيئك، وبعدين اعمل اللّي أنت عاوزه.

كانت محاولة المتّهم لتملّقي قد نجحتْ بشكلٍ ما في إثارة فضولي لسماع روايته للقضية، بالإضافة إلى أنّني كان لديّ متسعٌ من الوقت حينها، ممّا جعلني أقول: ماشي يا حاج اتفضّل احكي، بسّ بسرعة علشان أمين الشرطة برّه مستعجل، وعاوز يخلّص المأمورية.

بدا الارتياحُ على وجه المتهم، وقال: ربنّا يخليك ويستر عرضك يا دكتور، أقسم باللّه اللّي هقوله ده هو اللّي حصل، أنا عندي ٤ إخوات غيري، وأنا كبيرهم، وكنت شغّال مع أبويا- الله يرحمه- في ورشة الخراطة بتاعته، وكنت أنا إيده اليمين، وإخواتي الأصغر منّي أبويا مرضيش يبهْدلهم، وكلّهم اتعلموا وبقوا دكاترة ومهندسين وموظفين محترمين، وورشة الخراطة بتاعتنا كبرت وشغلها بقى كتير، وعملنا كمان ورشتين، وتوكيل حدايد وبويات، والفلوس كترت معانا، وأنا اللّي كنت طافح

الدم مع أبويا في كلّ ده، وإخواتي بيتعلّموا وبهوات، أبويا كان عامل لي توكيل علشان أدير أعماله وحاجته، خاصّة إنه تعب في آخر أيامه، أنا الشيطان لعبْ بدماغي وكتبت كلّ حاجة باسمي بيع وشراء من غير ما أبويا يعرف، لغاية لمّا مات وجينا نوزّع الورث قلت لإخواتي الحاجة حاجتي، وانتوا خدتوا نصيبكم من الورث تعليم، وكلّ واحد فيكم اتجوّز واشتغل وعاش حياته.. ملكمش حاجة عندي، ساعتها إخواتي قاطعوني، وأمّي اتخانقت معايا، وتعبت وماتت بعدها بشوية، أنا بقى كنت متجوّز، ومجبتش إلّا بنت واحدة.

شعرت بالملل من القصّة، وكانت تبدو أنْ لا علاقة لها بالقضية، فقلت له مقاطعًا: يا حاج أنت بتحكيلي قصّة حياتك! إيه علاقة ده بالقضية من الأصل؟

قال المتهم: يا دكتور، والله ليه علاقة، أنا كانت صحّتي بمُب، والفلوس في إيدي كتير، ومفيش حاجة معملتهاش.. وشربت حشيش وترامادول وبرشام كتير، ومن سنتين كده صحتي تعبت شوية وجالي السكر والضغط، فمراتي خافت على مستقبلها ومستقبل البنت، وقالت لي أكتبْ لها هي والبنت كلّ حاجة بيع وشرا علشان إخواتي مش يورثوا فيّا، ده حتى خلّتني أوافق على خطوبة بنتي على ابن أختها علشان الورث ميروحش

لغريب، أنا وافقتْ على الخطوبة، بسّ كنت مقلّق شوية من موضوع البيع والشرا ده، فكنت بمَاطل معاها، والأمور ماشية، وكتبت لها حاجات بسيطة يعني علشان تسكت، لغاية ما من سنة حلمت بأبويا- الله يرحمه- وهوّ قاعد زعلان وبيقولّي أنا مستنيك، والحلم خلص، أنا خفت ساعتها وعرفت إنّ أجلي قرّب، وكانت صحتي بدأت تتعب من السّكر وغيره، فقررت أختم حياتي إنّي أصلّح غلطي وأرجّع لإخواتي حقوقهم بما يرضي الله، وعليه المكسب كان، ورحت حجّيت، وبطّلت البرشام والحشيش علشان ربّنا يرضى عليّا، مراتي لمّا عرفت اتخانقت معايا علشان إزّاي أضيّع شقى عمري وأسيبها وبنتها يتبهدلوا من بعدي!، غُلبت أحايل فيها وأعرّفها إنّ ده شرع ربنا وحقّ إخواتي، بسّ هي ما رضيتش، وسابت لي البيت وغضبت عند إخواتها، وسابت لي البتّ بنتي في البيت، أنا أقسم بالله خلال السنة دي بدأت أرجّع لإخواتي حقوقهم بما يرضي الله، وعملت كلّ حاجة علشان أصلّح غلطي، وبقيت راجل مستقيم وبخاف ربنا.

شعرتُ بالضّيق فعلًا من طول الحكاية، فقلت له: برضه إيه علاقة ده بالقضية؟!

قال لي المتهم: يا دكتور، أقسم بعزّة جلال الله ما عملت حاجة

في بنتي، أمّها هي اللّي موَحيّاها عليّا علشان تمنعني من ردّ حقوق إخواتي، وعلشان تودّيني في داهية، يا دكتور ده بنتي لحمي ودمّي معملش فيها كده أبدًا، أنا مقدرش اعملْ كده في بنتي ولا بنات الناس.

أثارت الجملةُ الأخيرة انتباهي بشدة، فقلتُ له: متقدرش تعمل كده في بنات الناس؟!

ردّ المتهم وهو ينظر لي نظرةً ذات مغزى: أقسم بالله أيوه.. أنا المرض جاب آخري.. والسّكر مبهدلني.. وماعادش فيّا حيل للحاجات دي.. بصّ يا دكتور كده على رجلي، ده انا عامل بتر في ٣ صوابع السنة اللّي فاتت دي بسبب السكر والغرغرينا!.

ثمّ قام بخلع الحذاء وكشفَ عن قدمه فتبيّنت وجود آثار بترٍ في بعض أصابع قدمه.

فقلت له: طب مقلتش كده لوكيل النيابة ليه؟ ومش جايب تقرير من الدّكاترة اللي كشفت عندهم ليه؟

ردّ المتهم بخجل: كشفتْ عند الدكاترة وقالولي اللّي عندي ده مضاعفات السكر والبرشام اللّي كنت باخده، ومقلتش كده لوكيل النيابة علشان خايف من الفضيحة، أنا اتفضحتْ بالظلم خلاص في موضوع بنتي، متبقاش الفضيحة من كلّه، بسّ أنت

دكتور يعني ستر وغطا عليّا، وحتّى لو عرفت اللّي عندي وبلّغته للنّيابة هيبقى أكرم لي.

عندَ هذه اللحظة كانت الصورة قد اتّضحت أمامي، الرجل ربّما يكون بريئًا، والاتهام ضدّه كيدي لا صحة له، وها هو الآن قد أخبرني أنّه يعاني من عجز جنسي، ولكنه خجل أن يخبر وكيلَ النيابة بشكل صريح، ولو أنَّ زوجة المتهم حقًّا قد تركته غاضبةً منذ عام فهي لا تعرف ما أصابه، وبالتالي ربما تكون متورطة في تدبير حيلةٍ ما للإيقاع به، وربما أستطيع بمزيدٍ من الفحوصات إمّا إثبات براءة المتهم أو تفنيد ادّعاءاته.

كان المتهمُ مازال جالسًا مُنتظرا ردَّ فعلي على ما قام بإخباري به، ولكنّني فضّلت عدم إبلاغه بالخطوات التّالية التي سوف أقومُ بها، وطلبت منه مغادرةَ الغرفة لإجراء سحب العيّنات منه، فما كان منه إلّا أن قال باكيًا: والله العظيم أنا بريء يا دكتور، خلاصي على إيدك أنت يا دكتور.

كانت دموعُه تبدو حقيقيّة، لقد رأيت أثناءَ عملي الكثير من الأشخاص يذرفون دموعَ التماسيح أملًا في التّأثير عليّ، والهروب من العدالة، إلّا أنّ هذا الرجل كان يبدو صادقًا إلى درجة كبيرة، وكانت مهمتي التأكدَ عمّا إذا كان صادقًا من

عدمه، فقررت أنْ أكتب إشارةً إلى النيابة أطلب فيها إرسال المتهم فيها إلى مستشفى الجامعة في اليوم التّالي لإجراء بعض الفحوص والأشعّات تحت إشرافي، وأثناء وجودي؛ استكمالًا لطلب النيابة، وبالفعل أرسلت الإشارة مع مندوب النيابة الذي أحضر القضية.

مرّت حوالي ساعتان قبل أن أتلقّى مكالمة هاتفية من وكيل النيابة المسئول عن القضية، ودار بيننا هذا الحوار:

وكيل النيابة: مساء الخير يا دكتور (مصطفى).

أنا: مساء الخير (عمرو) بك.

وكيل النيابة: حضرتك طلبت إرسال المتهم (...) لمستشفى الجامعة بكره ليه يا باشا؟!

أنا: والله حضرتك كتبتْ في مذكرة النيابة (بيان الحالة الصحيّة للمتهم)، وأنا بنفّذ طلب حضرتك.

وكيل النيابة: هوّ الكشف النهارده مش كفاية واللّا إيه؟

أنا: معاليك، لأ مش كفاية، المتّهم مريض سكر، وتبيّنت وجود حالات مرضية تانية من شأنها إفادة القضية.

وكيل النيابة باندهاش: إفادة القضية إزّاي إذا كان تقرير

حضرتك عن البنت بيقول إنّ واقعة التعدي الجنسي حصلت فعلًا!؟

أنا: المتهم واعي ومُدرك، وقواه العقلية سليمة، بسّ حالته الصحية مش كويسة، وواضح تأثير مرض السكر عليه، خاصّة مع وجود بتر في بعض أصابع القدمين، وسقوط بعض الأسنان، وحالة زيّ دي مع تاريخه في تعاطي بعض الممنوعات مُمكن تأثّر على قدراته الجنسية، وتخلّيه عاجز جنسيًّا، وبالتالي مُمكن يبقى مش هو اللّي اعتدى على البنت.

وكيل النيابة: الكلام اللّي حضرتك بتقوله ده خطير يا دكتور، يعني لو ثبت فعلًا إنّه عاجز جنسيًّا يبقى الاتّهام كلّه كيْدي، والبنت حدّ تاني اعتدى عليها.

أنا: بالظبط حضرتك، في الحالات العادية بنبعت المتّهمين المقرّ الرئيسي لمصلحة الطب الشرعي في القاهرة يعملوا الفحوصات.. بسّ ده بياخد وقت ومجهود، والقضية دي عامل الوقت فيها مهمّ؛ نظرًا لأنّ المتّهم هو الأب، وواضح إنّ في شوشرة في الموضوع، وممكن نعمل كلّ الفحوصات في مستشفى الجامعة هنا، وأنا هابَقى موجود للتأكّد من عدم وجود أيّ تلاعب في الإجراءات.

بدا الارتياحُ على صوت وكيل النيابة وهو يقول: والله يا دكتور ده مجهود عظيم من حضرتك، وكرم كبير، معلش أصل أنا أوّل مرّة حدّ يعرض عليّا الموضوع ده، بسّ عمومًا بكره المتّهم الساعة ٨ هيبقى في مستشفى الجامعة، وحضرتك فيك ألف بركة، بسّ خلّي بالك القضية معقربة، والمتهم بكره هيبقى مسئوليتك، يعني لو حصل حاجة- لا قدّر الله- هتبقى مشكلة كبيرة.

رددتُ عليه مطمئنًا إيّاه: متقلقش يا (عمرو) بك، إن شاء الله تعدي على خير.

وما إن انتهت المكالمة حتّى بدأ القلق والتوتّر يصيباني، ما الذي فعلتُه للتّو!؟ لماذا أقحمت نفسي في تلك المُعضلة؟ ألم يكنْ يكفي أن أرسل المتّهم لإجراء الفحوصات بالمقرّ الرئيسي للمصلحة وفق الإجراءات المعتادة؟

للأسف كانت تلك هي إحدى خصالي التي حاولت التخلصَ منها كثيرًا دون جدوى، كنت دائمًا ما أندمج في عملي بشكلٍ شخصي من أجل إنجازه بصورةٍ مثالية، وفي وقت قياسي، ليس هذا فحسب، بل كنت أضعُ نفسي موضعَ المريض أو المتهم أو أهل المريض والمتّهم، كم سيكون قلقهم من جرّاء طول الإجراءات؟ هل ينبغي ألّا نتعدّى حياة شخص وبراءته كونها

قضية أو حالة يمكن أن تمضي لحالها دون اكتراث منّي؟

«مَنْ فَرَّجَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، هكذا قلت لنفسي، أنا أوّلًا وأخيرًا طبيب، لا يأتيني الناس إلّا مكروبين ومفْجوعين، ولن أخذلهم، ولن أتوانى عن فعل أيّ شيء لتفريج كُربتهم؛ عسى أنْ يفرّج اللهُ كربتي يوم القيامة، وما أشدّها من كربة لو تعلمون.

كانت كلماتُ وكيل النيابة قد جعلتني أشعرُ بانقباض وقلق، بالإضافة إلى أنّني كنت- لأوّل مرة- أقوم بتلك المهمّة، إلّا أنني حاولت طمأنةَ نفسي بأن كلّ شيء سوف يسير على ما يرام، وسوف يمرّ اليوم بخير وتذهب القضيةُ إلى حال سبيلها بسلام، ولكن ما حدث بعدَ هذا لم يحمل أيّ سلامٍ لي أو للمتهم أو لأسرته، وما حدث بعد ذلك كان هو الجحيمَ بعينه للجميع، للجميع بلا استثناء!

استيقظتُ مبكّرًا في صباح اليوم التالي، وتوجّهت إلى المستشفى الجامعي مباشرة، وكنت قد اتخذت كافة الترّتيبات لإنجاح مهمتي في فحْص المتهم، قمتُ بتأمين المهمة باصطحاب أحد فنيّ التشريح في المكتب المشهود لهم بالقوّة البدنية، كما قمتُ بشراء قناع طبي (Mask) حتى يضعَه المتهم على وجهه كي

أخفي شخصيّتَه ربّما يكون هناك مَن يترصّده أو يحاول أذيته.

قابلتُ المتهم ومعه فردُ الشرطة المكلف بحراسته، طلبت من فرد الشرطة فكّ الأصفاد من يد المتهم حتى لا نثير الشبهات، واحترامًا لكون المتهم في مستشفى جامعي كأيّ مريض، وقمت بتأبط المتهم كنوع من التأمين، وأيضًا محاولًا إشعاره بقدرٍ من الراحة النفسية لأنّ في ذلك عاملًا كبيرًا في نجاح المهمة، هو مازال متهمًا، والمتهم بريء حتى تثبت إدانته، وأنا كطبيب شرعي لم أثبت إدانته بعد.

قمنا في ذلك اليوم بإجراء العديدِ مَن الفحوصات الطبية والأشعات التشخيصية للمتهم، وكنّا كلما دخلنا غرفة أو عيادة بالمستشفى لإجراء فحصٍ ما، طلبت من الشّرطي المرافق الانتظار بالخارج حتى لا يشعر الطبيبُ المعالج بتوتر، وكذلك حتى لا ينحاز في تقريره إذا ما علِم أنّ الشخص الماثل بين يديه هو متهم في قضية شائكة كهذه.

كانت الفحوصاتُ قد استغرقت وقتًا طويلًا على الرغم منٍ وجود كافّة التسهيلات من المستشفى، لا سيّما ومعي خطابٌ من النيابة العامة بتسهيل إجراء كافّة الفحوصات، وكنت قد شعرت بالإرهاق في آخر اليوم فجلستُ أنا والمتهم والشرطي

المرافق في انتظار إجراء فحص أخير، فسمعت المتّهم وهو يناجي ربه قائلًا: بقى أنا يا ربي لمّا أقعد طول عمري ماشي في الغلط أبقى مبسوط ومتعزّز، وسيرتي زي الفل، والسّنة اللّي أتوب فيها وأرجع لك يحصل لي كده! يا ربّ البهدلة دي كلها تكفّر سيئاتي، العفو من عندك يا ربّ.

كانت كلماتُه تلقائية ومؤثّرة، وتحمل الكثيرَ من الندم على ما فعل، وكنت أتمنى حقًّا أن تكون توبته صادقة وليست محض تأثّرٍ بابتلاء أو موقفٍ عصيب.

انتهى آخرُ فحص للمتهم، فرافقته إلى حيث سيارة الترحيلات، وقلت له ولمرافقيه: إحنا كده خلّصنا، اتوكّلوا انتوا على الله.

فجأة اقترب منّي المتهم بشدة ثمّ حاول تقبيلَ رأسي هو يبكي ويقول: ربّنا يخليك ويستر عرضك يا دكتور، أنا ميهمّنيش أنت هتكتب إيه في التقرير، وميهمّنيش إذا كنت اتْسجن واللّا أخرج، حضرتك عملت اللي عليك وزيادة وعاملتني كبني آدم، وأنا غلطت في حياتي كتير وآديني بتعاقب، روح إلهي ما تترمي في ضيقة، ولا يسلط عليك ظالم.

كانت كلماتُه مؤثّرة، وبدت كأنها وداع، أو ما يشبه ذلك،

تركته وانصرفت مسرعًا عائدًا إلى المستشفى لاستلام تقارير الفحوصات وختمها واعتمادها بأختام المستشفى، وقد كانت كافةُ التقارير والتحاليل تشير إلى أنّ المتهم في حالته الراهنة مصابٌ بعجْز جنسيّ عضوي، ليس هذا فحسب، ولكن أيضًا أثبتت الموجاتُ الصوتية على القلب أنّه مصاب بضعف في عضلةِ القلب، وأثبتت الموجات الصوتية على البطن وجود بوادر تليّف بالكبد، وضمور بالكليتين، باختصار كان المتّهم مهترئ من الداخل بصورة شبه تامة، وكانت حالته الصحية لا تسمح بارتكاب الجريمة الموصوم بها.

في صباح اليوم التالي، قمت بإعداد تقريرٍ متكامل عن حالة المتهم الصحية، وقمت بإثبات كافة التقارير الطبية، وأرفقتها بالتقرير الطبي الشرعي، وأرسلت القضية إلى النيابة المختصة، كان هناك شعور بالفرحة العارمة ينتابني؛ نظرًا لأنّني أنهيت دوري بالقضية، وتمكّنت من تبرئة شخصٍ ما من تهمة شنيعة كهذه، لا أفهم ما الذي يدفع الفتاةَ إلى اتّهام والدها بتلك التهمة، ولماذا لم تشعرْ بلحظة من تأنيب الضمير قبلَ أن تتسبّب في تدمير سمعةِ والدها وأسرتها بهذه الصورة المخجلة؟!

مرّت عدّةُ أيام منذُ انتهائي من تلك القضية، ولم أهتّم كثيرًا بتطوراتها، فلا شأن لي بتحقيقات النيابة بعد أن أدّيت عملي،

ولكن في صباح أحد الأيام وردتْ إشارةُ تشريح للمكتب، وكانت تحملُ اسماً للأسف مألوفًا وبشدّة!

كانت الجثةُ المراد تشريحها هي جثّةُ الفتاة التي اتّهمت والدَها باغتصابها، ممّا أثار في نفسي الحزن والدهشة في ذات الوقت، فقمتُ بالاتصال بوكيل النيابة قبلَ التوجّه للمشرحة، وسألته عن تفاصيل الواقعة فقال: والله يا دكتور اللّي حصل إنّ أمّ البنت هي المحرّضة على كلّ ده، كانت خايفة المتّهم يوزع ثروته اللّي قيمتها حوالي ١٠ مليون جنيه على إخواته، قامت اتّفقت مع خطيب بنتها إنّه يتجوز البنت عرفي، وكتبت ورقة معاه بكده، واتفقت معاه ومع بنتها إنّه بعد قيامه بمواقعة البنت، البنت هتشتكي الأب وتتّهمه بالجريمة علشان يمنعوه من التصرّف في فلوسه، وفعلًا خطّتهم كانت ماشية كويس لغاية لمّا الست عرفت إنّ المتهم من داخل السجن بيتواصل عنْ طريق المحامي بتاعه علشان يرجّع الفلوس لإخواته، ده خلّاها تقرّر التخلص من المتهم وهو جوّه السّجن، وفعلًا استدعت خطيب بنتها المتواطئ معاها وحاولت تحرّضه على الاتفاق مع المسجّلين الخطرين اللّي مع زوجها في الحبس علشان يقتلوه في مقابل مادي، وحاولت الضغط على الولد بالورقة العُرفي وعلاقته ببنتها، البنت سمعتْ خطّة الأم، ورفضت إن أبوها يتقتل، واتخانقت

مع الأمّ وحاولت الهروب من البيت، حصلت مشادّة بين الأم والبنت وخناقة، والأم دفعت البنت على سلم البيت فوقعت ميّتة، كلّ الكلام ده اعترف بيه خطيب البنت حالًا في التحقيقات، خاصّة بعد ما واجهتُه بتقرير الطبّ الشرعي اللّي يبرئ الأب من الاعتداء على بنته، والأمّ عملنا لها ضبط وإحضار، وشوية ونعمل إخلاء سبيل للأب المتهم.

كانت القصة مأساوية إلى أبعدِ الحدود، وتحمل من الجنون والبشاعة ما يفوقَ تخيلَ أيّ إنسان طبيعي، وتوجّهت إلى المشرحة وقمتُ بإجراء الصفة التشريحية على جثمان الفتاة، وبالفعل تبيّنت وجود العديد من الكدمات بجسدها، كما تبيّنت وجود كسورٍ بالفقرات العنقية وكسر بقاع الجمجمة ونزيف بالمخّ ممّا أدى إلى وفاتها.

عدتُ إلى مكتبي وأنا أحملُ من النكد والغمّ ما يفوق تصوّرَ أيّ شخص، كنت أفكر في هذه اللحظات في تلك الفتاة الشّابة التي كانت منذُ أيام قليلة مُفعمة بالحيوية والحياة عندما رأيتها، وكيف أوْدى بها جشعُ الأم إلى الهلاك، كما كنت أفكرُ في ذلك الأبِ المكلوم الذي فقدَ للتّو ابنته الوحيدة بعدما فقد من قبْل سمعته وأسرتَه، ولا أعلم هل ما أصابَ هذا الرجل هو عقابٌ إلهي على ما اقترفت يداه من أكل أموال الناس بالباطل

طيلةَ هذه الأعوام، أم هو ابتلاءٌ من الله حتّى يكفّر عنه ذنوبَه، ويطهّره من خطاياه، أيًّا كان ما حدث فإنّ ذلك كله كفيل بجعل ما تبقّى من حياة ذلك الرجل جحيمًا لا يُطاق حتى لحظة مماته.

في اليوم التالي، جاءتني إشارة من النيابة العامة لإجراء التشريح على جثّة الأب المتهم، فاتصلت بوكيل النيابة للتأكّد من الخبر، فأكّد لي الخبر وأخبرني أنّ الوالد سقط ميتًا في زنزانته فوْر تلقيه خبر وفاة ابنته، وأنّ تعليمات النائب العام تقضي بتشريح جثمان أيّ مسجون وافتْه المنية بالسجن درئًا للشبهات، ومنعًا لأيّ اتهامات بسوء المعاملة، أو التّعذيب البدني داخل السجون.

كانت تلك هي الضربةَ القاضية لي نفسيًّا في هذه القضية، لم تعدْ هذه قضية عادية أباشرها، بل تحوّلت إلى مأساة إغريقية مُظلمة الجوانب، ومفجعة في أدق تفاصيلها.

ما هذه اللوثة العقلية التي أصابتِ البشر؟ ألهذا الحدّ أعمتْ شهوة جمْع الثروات أعينهم؟ إنّ الأموال لم تشترِ لهذه الأسرة سوى التعاسة والدمار، لم تشترِ للرجل الصحّة ولا راحة البال، لم تشتر للابنة المستقبل السّعيد أو الزوج المحترم، ولم تشتر للأمّ

الأمان أو رغد العيش التي كانت تتمناه، حقًّا كانت الأموال هي اللّعنةَ في هذه الأسرة؛ فقد فني الأبُ وابنته، وأصبحت الأمّ مجرمةً فقط بسبب حب المال!

توجّهت للمشرحة للمرّة الثانية خلال ٢٤ ساعة، قمت بمناظرة جثة الأب التي كانت خالية من أية إصابات، وأجريت الصفةَ التشريحية على جثمانه، وتبيّنت أنّ سبب الوفاة هو احتشاء بعضلة القلب نتيجة ضيق وتصلّب الشرايين التاجية، كما تبيّنت وجودَ الكثير من المعالم المَرضية بأعضاء الجسم، لقد كان حقًّا مهترئًا من الداخل بصورةٍ مفزعة بفعل المرض.

و لأوّل مرةٍ منذ بدأتُ عملي كطبيب شرعي منذ عدّةِ سنوات غلبتني دموعي أثناءَ العمل فقد كان صوت الرجل يتردّد في عقلي، وكانت صورتُه وهو حيّ تمرّ على مخيلتي، كنت أعلم أنه بريء، وكنت أعلم أنه أرادَ أن ينقّي نفسه من الذنوب والخطايا، كنت أتذكّر كلمته لي وهو يقول (خلاصي على إيدك يا دكتور!) وكنت قد اعْتقدت في حينها أنّه بتبرئته من التّهمة الموجهة إليه قد حازَ الخلاص، ولكنّي الآن فقط أتمنى أنْ يكون بعد ما عاناه في حياته أنْ يكون قد وجد حقًّا ضالّته المنشودة، أن يكون قد وجد الخلاص!

عزيزي القاتل، تحية غاضبة وبعد،



أنقلُ إليك رسالةً مختصرة مِن تلك السيدة الصغيرة التي قتلتَها، الرسالة مَفادها (لن تنجو بفعلتك)!!

في الواقع إنّ تلك الرسالة أخبرتني بها تلك الصغيرةُ عندما شققتُ أنا صدرها، ورأيت آثارَ جريمتك في جسدها الضعيف.

أعرفُ أنّك حاولت جاهدًا إخفاءَ آثار جريمتك، كما أعرف جيدًا أنّك حاولت تضليل العدالة، إلّا أنّه لم يكنْ في حسبانك أنّني أستطيع نقلَ رسائل الموتى إلى عالم الأحياء، لم يكنْ في حسبانك أنني أتقنُ لغة الموتى..

عزيزي القاتل، أعلمُ أنّك ستنهار، وتعترفُ بجريمتك فورَ

وصول تقريري إلى يدِ العدالة لأنّي سأخبرهم بما فعلته، وكيف، ومتى فعلته..

ليستْ هذه المرّة الأولى لي التي أفعلُ فيها هذا، ولن تكون المرّةَ الأخيرة، ولكنْ من المؤكّد أنّها المرة الأخيرة لك، ولتصْحَبك لعناتي ولعناتُ ضحيّتك إلى حيث تستحقّ أنتَ الذهاب، إلى السّجن، أو إلى حبل المشنقة، أيّهما أعدل وأقرب.

الإمضاء

مَن سيرسلك إلى هلاكك

الطبيب الشرعي/ مصطفى جاهين

القضيةُ الخامسة

(جريمةٌ شيطانية)



كان فصلُ الشتاء في تلك الفترة هو الأشدَّ برودة منذُ سنوات عديدة، وذلك الصباح تحديدًا كان ممطرًا بشدّة، ولكنّ هذا لم يمنعني من الذّهاب إلى المكتب في تمام التاسعة صباحًا كعادتي، وما إن وصلت إلى المكتب حتى وجدتُ أحدَ الموظفين يُحضر لي ملفَّ قضية بداخله إشارةٌ من النيابة العامة بالانتقال إلى مستشفى في أحدِ المراكز التابعة للمحافظة لفحصِ وتشريح أشلاء آدمية معثورٌ عليها على قارعة إحدى الطّرق الزراعية.

كانت الإشارةُ مبهمةً، لا سيّما وأنّه في الإمكان إرسال تلك الأشلاء إلى مكتبنا لفحصها دون الحاجة للانتقال، ممّا دفعني للاتصال بوكيلِ النيابة المختص بالقضية، وسؤاله عن تفاصيل الواقعة، وبعد فاصل مِن المجاملات العابرة، سألته: يا ترى يا (محمود بك) إيه ظروف قضية الأشلاء اللّي حضرتك طالب نشوفها دي؟!

ردّ وكيلُ النيابة وقال: والله جالنا بلاغ إنّ مجموعة فلاحين لقوا شيكارة بلاستيك مرمية في طريق زراعي جانبي صغير، ولقوا دمّ بينزل منها، لمّا فتحوها لقوا فيها أشلاء آدمية، فطلعوا بيها على المركز، وبلّغوا الشرطة، وأنا رحت عاينتها في مشرحة المستشفى، والحقيقة شكلها صعب جدًّا، ومعرفتش دي أجزاء من أنهو حتة في الجسم.

شدّت تفاصيل الواقعة انتباهي، ممّا جعلني أسأل وكيل النيابة في اهتمام: شيكارة واحدة بسّ اللّي لقوها، واللّا أكتر؟

أجابني وكيل النيابة مندهشًا: شيكارة واحدة بسّ، هوّ في احتمال يلاقوا واحدة كمان؟!

أجبتُه مؤكّدًا: غالبًا أيوه، ممكن تجيلك بلاغات من أماكن تانية في توقيتات مختلفة لأنّ في الغالب لو القضية جنائية، وفيها المجرم

يتخلّص من أشلاء ضحيته، يبقى بيرمي في أماكن مختلفة على فترات متباعدة.

ردّ وكيل النيابة قائلًا: ربّنا يستر، أهو حضرتك بقى افحص الحاجات اللي ظهرت، وبلّغني بالنتيجة تليفونيًّا لو أمكن.

أنهيتُ المكالمة التليفونية معَ وكيل النيابة، وتوجّهت رفقة فنّي التشريح إلى مشرحة المستشفى حيث وجدتُ بالفعل الشيكارة البلاستيكية محفوظةً بثلاجة المشرحة، وكانت شيكارة بلاستيكية كبيرة خضراء اللّون، ملوّثة بمزيج من الطين والدم، ولكن لم تكنْ تنبعث منها أيّة رائحة كريهة لحُسن الحظ.

قمتُ بفتح الشيكارة، وتفريغ محتوياتها على منضدةِ التشريح، وبالفعل كان المشهدُ مثيرًا للغثيان، كانت هناك أجزاء آدمية تمّ تقطيعُها إلى أجزاء صغيرة، وقد اضطررتُ إلى فحص الأجزاء، كلّ على انفراد حتّى أتبيّن طبيعتها، وبعدَ ساعتين كاملتين من الفحص المتواصل تبيّنت أنّ الأجزاء غالبًا من الأطراف العلوية والسفلية، وكانت عظامُ بعض الأجزاء غيرَ متناسبة مع باقي الأجزاء، ممّا يعطي انطباعًا أنّه ربما تلك الأشلاء لأكثرَ من شخص، كما تبيّنت من الفحص أنّ مَن قام بهذه الجريمة لديه الخبرة في كيفية تقطيع الجثث، وأنّه قد استخدم سكينًا كبيرة

حادّة في تقطيع الجثة، والأهمّ من هذا كله أنّ الجثة قد تمّ تمزيقُها بعدَ حدوث الوفاة وليس قبلَ حدوث الوفاة، وبالطبع قمتُ بأخذ عينات من الأجزاء المختلفة لمحاولة استخلاص الحامض النووي منها، وأيضًا للبحث عن أية آثار لمواد كيماوية مخدرة أو منومة أو سامة، وقد قمتُ بإرسال كافة العينات إلى المعملين الطبي والكيماوي لإجراء التحاليل المطلوبة.

قمتُ- عقب انتهائي من فحص الأشلاء- بالاتصال بوكيل النيابة المختص (محمود علي)، وأبلغته بمشاهداتي، ووعدتُه بإصدار تقرير مفصّلٍ عقب ورودِ باقي نتائج التحاليل المعملية.

مِن واقع خبرتي بمثل تلك القضايا كنت أعلمُ أنه سيتمّ إيجاد أشلاء أخرى خلال أيام أو أسابيع قادمة، وستكون القضية أشبهَ بتجميع قطع الـ (puzzle) وليست قضية تشريح عادية، وللأسف فإنّه كلما زادت القطعُ بحوزتي كلّما تمكنت من إيجاد حلّ لهذه القضية.

وبالفعل مرّ حوالي أسبوع وتلقّيت إشارةً أخرى بوجود شيكارة أخرى مليئة بأشلاء آدمية، ولكن تمّ نقلها إلى مستشفىً مختلفة، ممّا استدعى سفري إلى تلك المستشفى، وما إن وصلتُ إلى مشرحة المستشفى حتى وجدتُ شيكارة خضراء كبيرة

في انتظاري، كانت تحمل نفسَ صفات الشيكارة السابقة التي وجدتها وفحصتُها منذ حوالي أسبوع تقريبًا.. إلّا أنّ هذه المرة كانت تنبعث منها رائحة كريهة.

قمتُ بفحص محتويات الشيكارة هذه المرة، والتي كانت تحتوي على أجزاء من الصدر والبطن والأحشاء، وكانت الأشلاءُ قد بدأت في التعفّن بالفعل، وجذبَ انتباهي هذه المرة أنّ بعض الأحشاء متكرّرة، أي وجدت أكثرَ من كبد، وربّما ثلاثة أو أربعة كُلٍ بأحجام مختلفة، وأجزاء من قلبين، بينما تعذّر عليّ تحديدُ طبيعة باقي الأجزاء نظرًا لما أصابها من تحلّل وتعفن، وحاولت- أيضًا- أخذَ عينات لفحصها كما في المرة السابقة.

كانت القضيةُ عند هذه النقطة قد وصلتْ إلى منعطف جديد، فهذه المرة تأكّدت أن هناك ضحايا متعددين وليستْ ضحية واحدة، ونحن ربما بصددِ مجرمٍ عديم الرحمة قامَ بإزهاق أكثر من روح في جريمة بشعة، وهنا أصبح عاملُ الزمنِ مهمًّا لإيجاد هذا المجرم قبلَ أن يكرّر جريمته، ويزهق مزيدًا من الأرواح.

ما إنْ عدت إلى مكتبي حتى قمتُ بالاتصال بالزملاء الأطباء بالمعملينْ الطبي والكيماوي، وناشدتهم من أجل الإسراع بتحليل

العيّنات المأخوذة من الشيكارة الأولى، ربّما يكون بها دليلٌ ما يقودنا للجاني، وبالطّبع أوصيتُهم بسرعة الانتهاء من تحليل العيّنات المأخوذة من الشيكارة الثانية.

خلالَ أيام، وصلتْني نتائجُ المعمل الطبي الخاصّة بالحامض النووي الخاص بالأشلاء، والتي أظهرت وجودَ حامض نووي لثلاثة أشخاص مُختلفين؛ ذكرَيْن وأنثى، والمفاجأة أنّ أحدهم كان يحمل حامضًا نوويًّا مشابهاً للشخصيْن الآخرين، أي أنّ الأشلاء تعود لأب وأمّ وطفلهما، وهو ما كان يعني أننا بصدد مذبحة، ربّما أجهز فيها القاتل على أسرة بأكملها!

كانت النتائجُ الجديدة مثيرةً للاهتمام، وقد قمتُ فور ورودِ النتائج بكتابة تقريرٍ طبي شرعي خاصّ بفحص الأشلاء ذكرتُ فيه أنّ الأشلاء تعود لثلاثة أشخاص؛ ذكرين أحدهما الأب والآخر الابن، والضحية الثالثة هي الأم، كما ذكرت أنّه قد تمّ تقطيعُ الأشلاء عقب الوفاة، كما تعذّر عليّ تحديد سببِ الوفاة تحديدًا، وكان قد مرّ على وفاة الثلاثة أشخاص ما يقربُ من يوم واحد عقبَ العثور على شيكارة الأشلاء الأولى.

قمتُ بإرسال التقرير إلى النيابة المختصة، وما هي إلّا ساعات، إلّا وقد تلقّيت اتصالًا من وكيل النيابة المختص، والذي بادرني

بالقول: إزيك يا دكتور (مصطفى)؟

رددتُ عليه وقلت: الحمد لله يا (محمود) بك، يا ترى التقرير وصل لحضرتك؟

ردّ قائلًا: أيوه يا باشا ربّنا يخليك، بسّ إيه حكاية إنّهم قرايب دي!؟ عيلة بحالها يعني اتقتلت واتقطعت!!؟

قلتُ له: للأسف أيوه، فعلًا في صلة قرابة بينهم، الجثث لأب وأمّ وابنهم.

سألني متعجّبًا: طيب القاتل نقدر نعرف عنّه حاجة من طبيعة الجريمة؟

رددتُ عليه قائلًا: والله الحاجة الوحيدة اللّي ممكن نستنتجها إنّ القاتل عنده خبرة كويسة بطريقة تقطيع الجثث والتخلص منها.

ردّ وكيل النيابة مازحًا: يعني نقول مُمكن يكون طبيب شرعي؟

ضحكتُ وقلت له: ههههههههه، مفيش حاجة مُستبعَدة، وممكن يكون جزار.

قال وكيلُ النيابة باهتمام: قصدك يكون عنده خبرة يعني، تمام قوي.

أكملت حديثي مضيفًا: يا ريت لو حضرتك تشوف بلاغاتِ الغياب اللّي في مركز الشرطة، ممكن تفيدنا، لأنّه هيبقى واضح جدًّا لو حدّ بلّغ باختفاء أسرة، أو على الأقل فردين من أسرة واحدة.

وأنهينا- أنا ووكيل النيابة- الاتصال على اتّفاقٍ بتبادل ما قد يستجدّ من معلومات.

لم تكدْ تمرّ عدة أيام حتى وردني اتّصالٌ من وكيل النيابة يفيد بوجود بلاغينْ منفصلين، أحدهما بلاغ عن غيابَ أمّ وطفلها، والبلاغ الآخر لغياب طبيب نساء وتوليد، ولم تكنْ تحريات الشرطة تفيد بوجود أي علاقة بين الثلاثة، ولكن شيء ما بداخلي أخبرني أنّ اختفاء الثلاثة في نفس التوقيت لم يكن صدفة على الإطلاق!

كان البلاغُ باختفاء الأم وطفلها قد تمّ تقديمُه بواسطة الزوج، والذي أفاد أنه عقب حدوث خلافات زوجية بينه وبين زوجته، وعقب عودته إلى منزله اكتشف غيابَ الزوجة والابن، وبالبحث عنهما، وبسؤال الأقارب، لم يستطع العثورَ عليهما، أمّا بلاغ اختفاء طبيب النساء والتوليد فقد تمّ تقديمُه بواسطة السكرتيرة التي تعمل لديه بالعيادة الخاصة به، وأفادت

في بلاغها أنّ الطبيب يعيش بمفرده، وغير متزوّج، وأنّه اختفى عقب انتهاء عمله بعيادته.

وبناءً على تلك المعلومات، طلبتُ من وكيل النيابة إرسال والد الزوجة المتغيّبة وزوجها إلى معمل الطب الشرعي الطبي بالقاهرة لكي يتمّ أخذ عيناتِ الحامض النووي منهما، ومقارنتها بالحامض النووي بالأشلاء المعثور عليها، ربّما يمكننا التوصل إلى أية دلائل.

كما قلتُ سابقًا إنّ مثل هذه القضايا أشبه بتجميعِ قطع الـ (puzzle)، وبالفعل هذا ما بدأ يظهر عندما وردني تقرير المعمل الطبي يفيد بوجود تشابه بين الحامض النووي لوالد الزوجة المختفية وبين الحامض النووي المأخوذ من الأشلاء الخاصة بالأم وطفلها، بينما لم يتشابه الحامض النووي للزوج مع الحامض النووي الخاص بأشلاء الطفل، وكان هذا يعني شيئًا واحدًا لا يقبل الشك، هذا الطفل لم يكنْ ابنًا للزوجِ في يوم من الأيام، وهو ما يعني أنّ الأمّ ربما أنجبت الطفل من علاقة غير شرعية، لا سيّما وأن التحريات أفادت بأنّ الزوج كان مغتربًا في الخارج لفتراتٍ متباعدة، وكان هذا الاكتشاف سيقلبُ القضية رأسًا على عقب، حيث إنّ الدافع لارتكاب الجريمة واضح؛ الثأر والانتقام!

على الفور، أبلغت وكيلَ النيابة بالنتائج التي ظهرت لدي، واستنتاجي الخاص باحتمالية تورط الزوج في هذه الجريمة، وبالفعل قام بالتحقيق مع الزوج الذي أنكر أيّة معرفة بشكوكنا، بل بالعكس دافع عن زوجته، وأصرّ على نسب الطفل له، وقال إنّه ضحّى بالكثير، وعانى- هو والأمّ- لسنوات طويلة حتى استطاعا إنجاب هذا الطفل، نظراً لأنّ الزوج كان يعاني من مشاكل في الإنجاب حسب قوله!

كانت القضيةُ بالنسبة لي كطبيب شرعي قد انتهى دوري فيها، ولا يمكنني فعلُ المزيد، إلّا إذا ظهرت أدلة مادية جديدة استدعتْ تدخّلَ الطب الشرعي من جديد، ولكن نظراً لأنّ علاقتي مع وكيل النيابة المسئول عنِ القضية كانت جيدة، فقد دفعني هذا للاتصال به، ودار بيننا الحوار التالي:

أنا: مفيش جديد بخصوص القضية يا (محمود) بك؟

وكيل النيابة: لا والله يا دكتور (مصطفى). الأمور كلّها غامضة، ومفيش طرف خيط يدلنا على حقيقة الموضوع، حتى الأب التحقيق معاه مجابش نتيجة.

أنا: طيب حضرتك بالنسبة للدكتور المتغيّب، هل في مشاكل أو عداوات للطبيب ده مع أيّ حد في البلد؟

وكيل النيابة: الحقيقة يا دكتور إحنا معملناش تحقيقات لأنّ مفيش أيّ تُهم باختطافه أو قتله وردت على لسان السكرتيرة بتاعته في محضر الشرطة.

أنا: طيب لو ميضايقش حضرتك، مُمكن تستدعي السكرتيرة بتاعته بنفسك وتستجوبها بخصوص أي عداوات أو مشاكل في الشغل، لأنّي حاسس إنّ تغيب الدكتور في نفس توقيتِ العثور على أشلاء ٣ جثث ده مش مجرّد صدفة، ده انطباعي الشخصي.

وكيل النيابة: أنا متّفق مع حضرتك إنّ ٣ محاضر تغيّب في نفس المركز في نفس التوقيت يعتبر شيء ملفت للنّظر، بسّ إيه العلاقة بين طبيب نسا وأمّ مختفية مع ابنها؟!

أنا: لغاية دلوقتِ مفيش علاقة، مهمّتنا كطب شرعي ونيابة إيجاد تلك العلاقة.

كان الاقتناعُ قد ظهر في نبرات صوتِ وكيل النيابة وهو يقول: عمومًا بسيطة، هبْعت أجيب السكرتيرة وأحقّق معاها بنفسي في البلاغ بتاعها، وهبلّغك بالجديد.

انتهت المكالمة عند هذا الحد، وكانت كلّ مهمتي بعدَ هذا هي العودة إلى عملي المعتاد، وانتظار ما قد يستجدّ من أخبار.

مرّت عدةُ أيام قبل أن يتّصل بي وكيل النيابة مرة أخرى ويقول: أيوه يا باشا، أنا استجوبت السكرتيرة وفيه معلومات جديدة معرفش قيمتها بالنسبة لك إيه؟

قلت له بفضول: احكيلي ونحلّل الموضوع مع بعض.

قال وكيل النيابة: السكرتيرة بتقول إنّ الدكتور المتغيب كان تخصّص تلقيح مجهري وخصوبة وعلاج عقم، وإنّه كان مشهور وملوش أيّ عداوات، بالعكس كانت عيادته زحمة جدًّا، والإقبال عليه كان كبير، خاصّة مع ارتفاع نسبة نجاح عمليات التلقيح المجهري اللّي كان بيعملها، وخاصّة في الحالات الميئوس منها، وكمان قالت إنّ عيادته في الدور الأرضي من مبنى مكوّن من دورين، الدور التاني عبارة عن شقة لإقامة الطبيب، وشقة تانية بيقوم فيها بعملياته وأبحاثه، وبالتالي بتقول مفيش أيّ مبرر إنّه يبتعد عن المنطقة اللي عايش فيها خالص.

أثارت المعلوماتُ انتباهي بشدة قبلَ أن أقول لوكيل النيابة: بصّ يا فندم، حضرتك أصدر إذن بتفتيش شقته، وهات لي أيّ حاجة ممكن نستخلص منها الحامض النووي بتاع الطبيب، فرشة أسنان أو مشط شعر أو مناديل مستخدمة أو حتى أعقاب سجاير.

أجاب وكيل النيابة في دهشة: إنت شاكك في إيه يا دكتور؟

أجبتُه بحذر: لو طلع الحامض النووي للطبيب المختفي هو نفس الحامض النووي لأشلاء الشخص التالت مجهول الهوية، يبقى كده حلّ لغز القضية عند السكرتيرة والزّوج المشتبه به، وصدّقني مفيش حاجة صدفة في اختفاء الطبيب والستّ وابنها.

وبالفعل في نفس اليوم، قام وكيلُ النيابة بإصدار إذن بتفتيش محلّ إقامة الطبيب المتغيب، وكانت النتيجة تحمل مفاجآت مدوّية ورهيبة إلى أبعد مدى، وفوق ما كنا نتوقع!

في صباح اليوم التالي، وعلى غير العادة، حضر وكيلُ النيابة المختص بالقضية إلى مقرّ إدارة الطب الشرعي رفقة عددٍ من موظفي النيابة، وفي حوزتهم عدةُ أحراز بأحجام مختلفة، وما إن شاهدت وكيل النيابة حتى قمتُ بالترحيب به: إيه الخطوة العزيزة دي يا (محمود بك)، نورّتنا والله.

ردّ وكيلُ النيابة وقال: ربنّا يخليك يا دكتور، أنا قلت آجي بنفسي أشوف حضرتك، وأعرض عليك الأحراز دي.

بدتْ عليّ الدهشة بسبب تصرّفه، وقلت له: الأحراز دي لقيتوها في شقة الطبيب المختفي؟

بدا القلقُ على وكيل النيابة وهو يقول : بصّ يا دكتور،

حضرتك مش غريب ويهمّني إنك تعرف كل حاجة عن القضية علشان أنت شريك أساسي في حلّ القضية دي، إمبارح بتفتيش مقرّ إقامة الدكتور، في البداية.. الشقة لقينا محتوياتها سليمة، ومفيش أيّ آثار عنف، أوضة النوم كانت عادية، بسّ لقينا فيها ملابس حريمي، مع إنّ الدكتور أعزب، ده خلّانا نشك، وبدأنا نفتّش باقي المبنى، دخلنا الشقة اللي كان بيعمل فيها عملياته وتحاليله، لقينا مصايب يا دكتور، أجهزة الكومبيوتر عليها أفلام إباحيّة خاصّة بالدكتور مع ستات، واتّضح إنّ في كاميرا مثبتة بغرفة نوم الطبيب، مش كده وبسّ، لقينا أنابيب بلاستيك غريبة الشكل ومكتوب عليها تواريخ وأرقام جوّه تلاجة، وبعضها كان في كيس نفايات طبية، معرفناش دي إيه، فحرّزناها وجبناها لحضرتك علشان تفحصها، طبعًا لقينا غرفة عمليات مصغرة فيها أدوات طبية وحاجات معملية، وبرضه لقينا علب أدوية مكتوب عليها بالإنجليزي، وبرضه حرّزناها وجبناها علشان حضرتك تفحصها.

كانت المعلوماتُ التي أدلى بها وكيلُ النيابة للتوّ هائلة ومثيرة للاهتمام، ممّا جعلني أقول باندهاش: استجوبتوا السكرتيرة بتاعته؟

قال وكيل النيابة: عملت لها ضبط وإحضار لأنّها اختفت من

يومين، بسّ بمجرّد إني أجيبها أكيد هتظهر أدلّة تانية كتير، بصّ يا دكتور حضرتك عارف إننّا في مركز ريفي، والكلام بيتنقل فيه بسرعة، وواضح إنّ القضية دي دخلت في سكّة الأعراض والشرف، وأقلّ معلومة لو اتسرّبت من التحقيقات للناس ممكن تولّع الدنيا، علشان كده رجاء خاصّ مني، أيّ حاجة هتتعمل تبقى في سرّية كاملة.

رددتُ عليها مبديًا تفهّمي: متقلقش يا (محمود بك)، كلّ القضايا عندنا في الإدارة هي سرّية للغاية، لأننا عارفين إننّا بنتعامل دايمًا مع أعراض ناس، وأسرارهم، زيّ أيّ طبيب مع أي مريض.

بدا الارتياحُ على وجه وكيل النيابة، وقال: طيب ممكن حضرتك تفحص الأحراز، وتبلغني بالنتيجة؟

قلتُ له: حضرتك بمجرّد استلام الأحراز بشكل رسمي هقوم بفحصهم وأبلّغك بنتيجة الفحص، ولو احتجنا أيّ تحاليل هوصّي المعامل تخلّصها في أسرع وقت، وإن شاء الله القضية دي تخلص على خير.

بمجرّد مغادرة وكيل النيابة، ومعرفتي لمستجدات القضية، كانت لدي رغبة عارمة في معرفة ما بداخل الأحراز المغلفة،

كانت بعضُ الأحراز عبارة عن أكياس بلاستيكية صغيرة تحتوي على فرشة أسنان ومشط يخصّان الطبيب المختفي، كما كان هناك كيس بلاستيكي صغير تبيّنت بداخله وجود واقيات ذكرية مُسْتعملة، فقمتُ بإرسال تلك الأحراز للمعمل الطبي لاستخلاص الحامض النووي منها، ومقارنته بالحامض النووي للأشلاء مجهولة الهوية.

وبفحص حرز الأنابيب البلاستيكية تبيّن أنّها مستوردة من الخارج، ومكتوب عليها باللغة الانجليزية (semen collection kit) أي أدوات لجمع السائل المنوي، وتبيّنت أنّ بعضها جديد وبعضها مستخدم، فقمتُ بإعادة تحريز الأنابيب وارسالها للمعمل الطبي لفحصها، وبيان ما إذا كان يوجد بها أيّة آثار لسائل منوي من عدمه، وبيان فصيلته، ومقارنة الحامض النووي به بالحامض النووي للأشلاء.

كما قمت- أيضًا- بفحص حرْز الأدوية التي تمّ العثورُ عليها بالعيادة ولم أتبيّن تدوين أية معلومات على أغلفتها سوى أنّها (مكملات غذائية)، فقمتُ بإرسالها إلى المعامل الكيماوية لبيان طبيعة المواد التي تحتوي عليها.

خلال الأيام القليلة التالية، استطاع وكيلُ النيابة العثور على

سكرتيرة الطبيب المختفي، واستجوابها، وأرسل لي صورةً ضوئية لمحضر التحقيق معها، وكانت اعترافاتها مثيرة للغثيان!

(الدكتور كان بيعمل عمليات تلقيح صناعي، وأنا كنت مجرّد سكرتيرة أستقبل المريضات، وأحدّد المواعيد، أنا كنت على علاقة عاطفية مع الدكتور، وكان بيدّيني فلوس كتير، وكان بيساعدني علشان ظروفي وحشة، وبعد كده طلب منّي أجيب له بنات علشان يعمل معاهم علاقات، وكان بيدّيني فلوس على كده، وكان بيشترط إنهم ييجوا بالليل متأخّر، ويكونوا من برّه البلد، الدكتور طلب منّي إنّ لو أي حالة من اللّي بتابع معاه الحمل طلبت تحديد ميعاد للولادة إنّي أقولهم الدكتور في مؤتمر، ويروحوا يولدوا عند أي دكتور تاني، أنا معملتش حاجة، ومعرفش إنّ الدكتور كان بيصوّر البنات، ومعرفش كان بيعمل إيه في معمله فوق، الدكتور كان بيمسح بيانات الستات اللّي بيعمل لهم تلقيح صناعي من على الكومبيوتر، وكان بياخد دفاتر المتابعة اللّي معايا في نهاية كلّ يوم)!

كانت اعترافاتُ السكرتيرة تشير إلى سوء سلوكِ الطبيبِ المختفي، كما كانت تشير إلى تعمّده إخفاء كلِ ما يحيطُ بعمله، وإحاطته بالسرية المطلقة، وهذا في مجمله يشيرُ إلى أنّه كان يقوم بجريمة أخلاقية بشعة ربّما تتكشف في الأيام القليلة القادمة.

بعدَ أيام قليلة وردتني نتائجُ تحاليل المعمل الطبي والكيماوي الخاصة بالأحراز التي قمت بإرسالها لهم، وكانت النتيجة تحمل في طيّاتها أجوبةَ لكلّ الأسئلة المحيّرة التي دارت برأسي، ولكن للأسف كانت الإجابات- أيضًا- قد كشفت بشاعة الجريمة، والتي ربما جريمة القتل التي بدأت بها كانت أقلّها بشاعة!

أوضح تحليلُ المعمل الطبي تطابقَ الحامض النووي المستخلص من أشلاء أحد الضحايا مع الحامض النووي المستخلص من المتعلّقات الشخصية والواقيات الذكرية المعثور عليها بشقة الطبيب المختفي، أي أنّ الطبيب هو الضّحية الثالثة المجهولة، وهو والد الطفل المكتشفة أشلاؤه أيضًا.

ليس هذا فحسب، بل الأدهى أنّ الأنابيب الطبية المعثور عليها بمسْكن الطبيب كان بعضها يحتوي على السّائل المنوي للطبيب، نعمْ للطبيب فقط، وهذا في حدّ ذاته كارثة، الطبيب كان يقوم باستخدام سائله المنوي لتلقيح المريضات مِن أجل ضمان نجاح عملياته، والحصول على أكبر قدرٍ من الشهرة والأرباح طبعًا!!

تحليلُ المعمل الكيماوي أشار إلى أنّ الأدوية المرسَلة له في الأحراز هي مجهولةُ المصدر، كما اتضح أن الكبسولات

تحتوي على مزيج من منشطات جنسية وفيتامينات وعقار مضادّ للاكتئاب، ولاً تحتوي على أيّة مواد ذات علاقة بزيادة إنتاج الحيوانات المنوية!

كانت تلك المعلومات لا تحتمل التأخيرَ حتّى تصل لجهات التحقيق، فما كان منّي إلّا أن اتصلت بوكيل النيابة المختص، ودار بيننا هذا الحوار:

أنا: السلام عليكم يا (محمود) بك ، أخبار معاليك إيه؟

وكيل النيابة: الحمد لله يا دكتور بخير، هل في جديد في القضية بالنسبة للمعامل؟

جاوبته بحماسة مشوبةٍ بالحذر: فعلًا، التقارير لسّه واصلة حالًا، ونتايجها هتقلب القضية.

وكيل النيابة: خير يا دكتور، إيه الوضع؟

أنا: تحاليل المعمل الطبي للأحراز المرسلة أكّدت إنّ الحامض النووي المستخلص منها يتطابق مع الأشلاء مجهولة الهوية لأحدِ الضحايا اللّي هو الطبيب، وكان الأنابيب اللي حضرتك شفتها كانت بتحتوي على السائل المنوي للطبيب الرّاحلِ اللّي غالبًا كان بيستخدمه في إخصاب بويضات المريضات بدلًا من استخدام السائل المنوي للأزواج!

ردّ وكيل النيابة بانفعال: يا نهار اسْود!! حضرتك متأكّد من الكلام ده واللّا دي شكوك؟!

أجبتُ بهدوء: للأسف، مفيش تفسير لاحتفاظ الطبيب بالسائل المنوي الخاصّ بيه في معمله إلّا كده، خاصة إنّ الطفل اللي اتقتل مع والدته هو ابن الطبيب برضه، كمان الأدوية اللّي حضرتك حرزتها والمعمل الكيماوي حلّلها ظهر إنّها تحوي منشطات جنسية وفيتامينات ومضادّات اكتئاب، يعني بسّ بتخلّي الزوج يآخدها ويحسّ بتحسّن نفسي وَعضوي من غير ما تعالج مشكلة الخصوبة.

زادَ انفعال وكيل النيابة مع توالي المعلومات، وقال: دي مصيبة سودا وكارثة، القضية كده بقت قضية رأي عام، الدكتور ده كان عنده مريضات كتير ومشهور جدًّا، يعني لو اتعرف الموضوع؛ فيه عشرات الأسر مهدّدة بالانهيار، وعشرات الأطفال هيترموا في الشارع.

رددتُ بنبرة حزينة: للأسف الوضع مأساوي، لكنْ في نفس الوقت كده مُمكن نكون عرفنا الدّافع المحتمل وراء قتله، وغالبًا الزّوج المشتبه به هو اللّي قتله.

ردّ وكيل النيابة بتحفّز: فعلًا واضح كده، أنا هَصْدر قرار

بالقبض عليه حالًا، وهبلّغك بالتفاصيل.

أنهينا الاتصال، ولم يكدْ يمرّ يومان حتى أرسل لي وكيلُ النيابة محضرَ التحقيقات مع الزوج، وحملت في طيّاتها اعترافاته بارتكاب الجريمة:

(اتجوّزت مراتي من ٨ سنين واتأخّرنا في الخِلفة، لفّينا على دكاترة كتير، وكلّهم شافوا التحاليل بتاعتي وقالوا مفيش أمل إنّي أعرف أخلف، كنت جزّار على قدّ حالي بشتغل في محلّات الجزارة بتاعة الناس واضطرّيت أسافر علشان أوفّر قرشين أرجع اتعالج بيهم علشان أعرف أخلّف، سافرت وقعدت سنتين حوّشت فيهم مبلغ لغاية لمّا لقيت مراتي بتقولّي في دكتور فتح جديد وشاطر، وممكن يعالجني ونعرف نجيب العيل اللّي نفسنا فيه).

(رجعت على مَلَا وشّي، ورحت كشفتْ عند الدكتور، ووريّته التحاليل بتاعتي وبتاعة مراتي، قال لي إنه هيدّيني علاج جديد مُستورد من عنده لمدّة أسبوعين، ويرجع هوّ يحلل لي تاني بنفسه، وبصراحة خدت العلاج حسيت إنّي بقيت كويس قوي، وبعد أسبوعين رجعت له، وعمل لي تحاليل وقالي (مبروك، تحاليلك بقت زيّ الفل، وممكن نعمل أطفال أنابيب

الأسبوع الجاي)، مصدّقتش نفسي وطرت من الفرحة، وفعلًا رُحت له في الميعاد أنا ومراتي، وعمل اللّي قال عليه، وبعد شهر كشف على مراتي وقال (مبروك، المدام حامل)!

(أقسم بالله طرتْ من الفرحة، ودبحت عجل لوجه الله، وبعدين سافرت وأنا بأحلم أشوف ابني اللي كان نفسي فيه، وبعد كام شهر مراتي ولدتْ وجابت (يوسف)، أنا بقيت أب بعد عذاب وتكاليف. وفي يوم، فيه دكتور من زباين المحلّ اللّي أنا شغّال فيه كنت بكلّمه وبحكيله بفرحة عن ابني، وعنْ مشوار علاجي وشطارة الدكتور بتاعي، وبحسن نية ورّيته التحاليل القديمة بتاعتي، راح قايل لي إنّي عندي عيب خلقي في الخصْيتين، وعمري ما هبقى أب! أنا اتجنّنت وشتمته ومصدّقتش، بسّ الراجل يعني مصلحته إيه؟! الشيطان دخل دماغي وخلّاني أعمل التحاليل تاني، ورحت كشفت عند دكتور تالت خالص، قالي إنّي فعلًا مستحيل أخلّف عيال حتى لو بالعلاج).

(أنا اتجنّنت ومعرفتش أعمل إيه، رجعت أجازة، وبمجرّد لمّا شفت ابني لقيته مش شبهي خالص، خدت مراتي والعيل في مكان مقطوع بحجّة إنّنا هنتفسح، وبعدين واجهت مراتي باللّي عرفته، فأنكرت وانهارت، وأقسمت بالله إنها عمرها ما خانتني،

وإنّ العيل ابني، أنا مصدّقتهاش وضربتها على دماغها وماتت، بصّيت للعيل اللّي مش من صلبي ومعرفش ابن مين، وفي قمة غضبي رحت خانقه بإيدي، قطعت جثّتهم بساطور وسكينة كانوا معايا).

(بعد كده حسّيت إني لازم أشوف شريك مراتي في الجريمة دي، رُحت استنيت عند عيادة الدكتور واترصدت له لغاية لمّا العيادة قفلت، ضربت جرس العيادة، وأوّل ما فتح الباب شدّيته وضربته على دماغه وخدته بعيد، لمّا فاق سألته مين أبو العيل؟ قعد يحلف إنّي أبو العيل، وإنّه عالجني، وإنّه عمره ما لَمس مراتي، حاول يهرب، رُحت خابطه بالسكينة في رقبته وقطّعته هو كمان، خدت الثلاث جثث ووزّعتهم بعيد عن بعض، ورحت بلّغت البوليس باختفاء مراتي، ومسافرتش علشان محدّش يشكّ فيا).

(أنا غسلت عاري بإيدي، وقتلت مراتي الخاينة وشريكها المجرم، والعيّل ابن الحرام ده أحسن له إنه يموت لأنّي مكنتش هربيه، وكنت هرْميه في الشّارع أو الملجأ يتبهدل، أنا عاوز اتعدم وأموت مش علشان أنا قتلت، لأ.. علشان أنا حياتي كلّها شقا وتعب وبهدلة، وفي الآخر أعزّ واحدة في حياتي خانتني وخلّتني أضيّع نفسي)!

انتهت اعترافاتُ الزوج القاتل عندَ هذا الحد، ولكنْ معها بدأت الكثيرُ من الأسئلة تتوارد إلى عقلي؛ هل هذا الرجل مجرم أم ضحية؟ هل هذه جريمة قتل أم قصاص؟ هل الطبيب المقتول مجرم أم ضحية؟ ما ذنبُ الأمّ والطفل؟ والسؤال الأهم: ماذا سيحدثُ لباقي الأسر التي لجأت لهذا الطبيب من أجل إنجاب طفلٍ؟ ما مصيرُ عشرات الأطفال؟ كلّ هذه الأسئلة دفعتني دفعًا للاتّصال بوكيل النيابة حتى أتبيّن مصير القضية، ولأوّل مرةٍ منذ عمَلي بالطب الشرعي يدفعني فضولي لمتابعةِ التحقيقات في القضية حتى بعد انتهاء دوري فيها!

اتّصلتُ تليفونيًّا بوكيل النيابة، وما إن أجاب على مكالمتي حتّى قلت له: أخبار معاليك إيه يا (محمود) بك؟ أنا قرأت اعترافات الزوج، بسّ القضية كده وضعها إيه قانونيًّا؟

ردّ وكيل النيابة بصوتٍ يغلب عليه الحيرة قائلًا: والله يا دكتور الموقف معقّد، المعلومات اللي أنت قدمتها لنا، واعترافات الزوج، بالإضافة للغموض الشديد اللّي كان الطبيب المقتول بيحيطه بعمله؛ كلّ ده خلانا نبحث ورا الدكتور تاني، جمعنا الشهادات اللّي لقيناها في العيادة، وبعتناها للجهات المختصة، واتّضح إن الشّهادات المصرية منها مزوّرة، بما فيها ترخيص

العيادة، أمّا الشهادات الأجنبية فكلها صادرة من إحدى دول أوروبا الشرقية، ومن جامعات غير معترف بها في مصر، وكلها عبارة عن دورات في التلقيح المجهري والإخصاب الصناعي، حتّى ملقيناش للدكتور ترخيص مزاولة مهنة في نقابة الأطباء الفرعية أو الرئيسية، وكمان محدّش من أطباء النساء والتوليد في المحافظة يعرف أيّ معلومات عنه، باختصار الدكتور ده كان شبح ظَهَر من العدم، واختفى للعدم برضه بوفاته!

رددتُ على وكيل النيابة بحزن: لو أضفنا لكده اختيارُه لمنطقة ريفية نائية لتكون مركز نشاطه، وتهربه من إجراء عمليات الولادة لمريضاته، بالإضافة إنّه أخفى أيّ تسجيل بأسماء مرضاه أو تواريخ تواجدهم عنده، فَدَه كلّه يدل إنّه فعلاً كان بيرتكب جريمة، وبيحاول يخفيها.

أجاب وكيل النيابة في ثقة: طبعًا ارتكب جرائم، ومش جريمة واحدة، والوضع صعب جدًّا، الزوج القاتل لازم يعرف إنّ زوجته كانت بريئة، وإنّها كانت ضحية لعملية إخصاب غير شرعية، ومن حقّ هيئة الدّفاع عن الزوج معرفة كافّة تفاصيل القضية بما فيها معلومات الطبّ الشرعي اللي ممكن تخفف من وطأة الحكم ضدّ الزوج، على الأقلّ في مسألة قتله للدكتور، ولكن أيّ تسريب للمعلومات دي هيعمل شوشرة وذُعر

جماعي بين الناس اللّي راحت واتعاملت مع الطبيب ده، وعشرات الأسر هتنهار، وعشرات الأطفال هيترموا في الشارع، خاصّة إنّ مفيش أيّ وثائق من خلالها نعرف نحدّد مين بالظبط اللّي ممكن يكون ضحية للطبيب، القضية دي تحديدًا- يا دكتور- هتبقى كلّ جلساتها سرية، وفي غرفة المداولة، وده اللّي بلّغني بيه سيادة المستشار المحامي العام، القضية دي يمكن القضية الوحيدة اللّي ظهور الحقيقة فيها بيتعب ويحزن أكتر ما بيريح ويطمّن.

انتهتْ بهذه الجملة مكالمتي مع وكيل النيابة، وفعلًا كان كلّ ما قاله صحيحًا، معرفة الحقيقة في بعض الأحيان قد تكون مؤلمةً ومُفزعة أكثر من الجهل بالحقيقة، فهذه الجريمة حملت في طيّاتها كلّ الخطايا التي ارتكبها بنو البشر في تاريخهم؛ قتل، كذب، طمع، اختلاط أنساب، ولقد كانت جريمة مفزعة ومقززة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، لقد كانت حقًّا جريمة شيطانية!

بلا وجه



أقسمُ لكم أنّني- وبعد ١٣ عامًا من العمل كطبيبٍ شرعي- لا أتذكّر وجْهَ أو ملامح أيٍّ مَن الموتى الذين قمتُ بتشريح جثثهم..

حوالي ١٠٠٠ وجه لا أتذكّر أيًّا منهم، قد أتذكّر أسماءَ الضحايا، كافّة الإصابات التي لحقت بهم، رائحة جثثهم، منظر الأحشاء المتناثرة فوقَ طاولة التشريح، ظروف وفاتهم، وجوه بعض أقاربهم، وربّما حتى تاريخ وفاتهم؛ ولكنّي لن أتذكّر ملامح وجوههم.

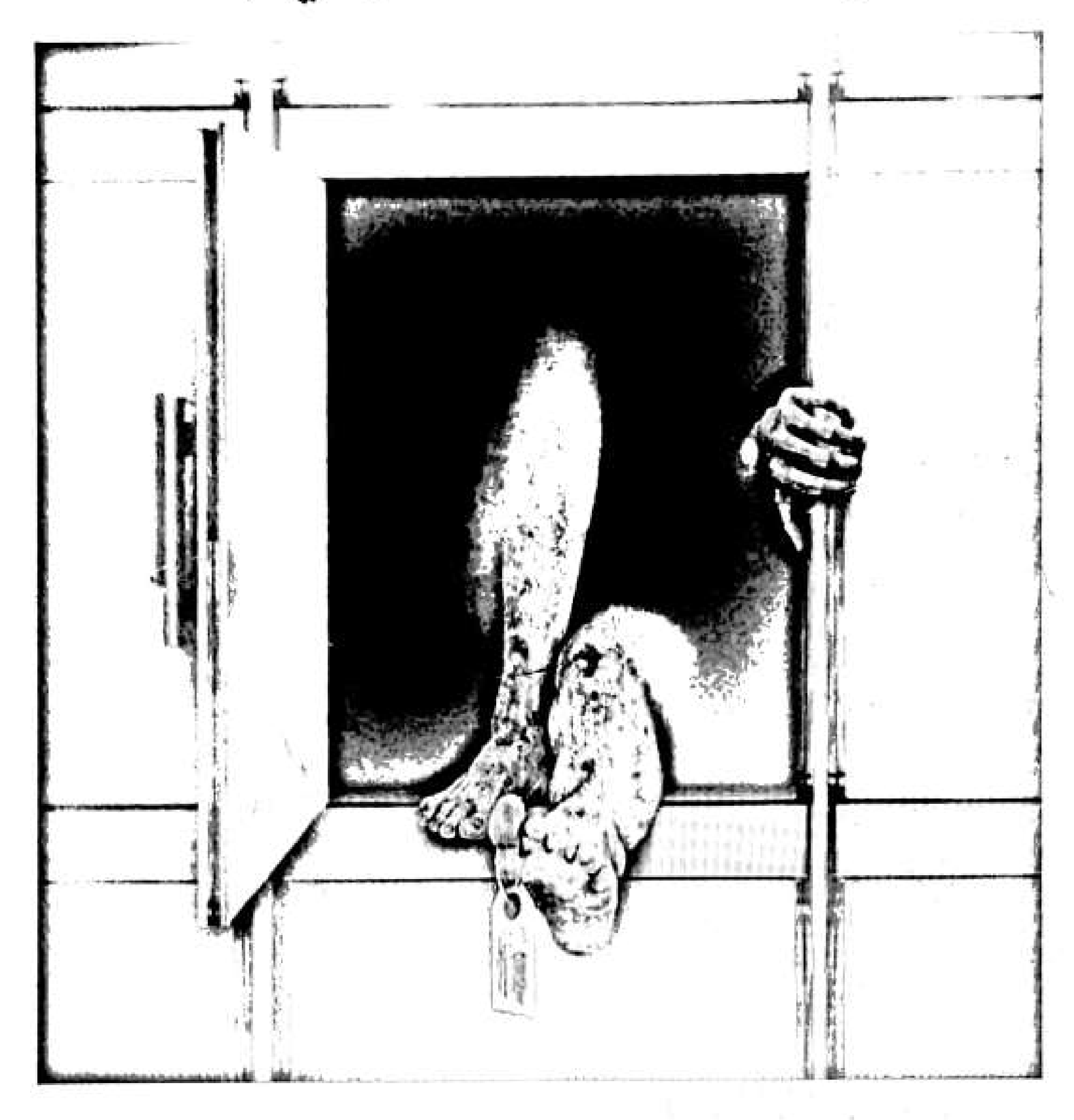
هذا بالتأكيد ليس تقليلًا مِن قدرهم، أو انتقاصًا من معاناتهم، ولكنّني أصبحت آلةً شديدة الدقة والتركيز، تبحثُ- فقط- عنْ سبب الوفاة، والبحث عن حقّ الموتى، بلا عاطفة

أو مشاعر.

أعتقدُ أنّ عدم تذكّري لوجوه الموتى هو مِن حُسن حظّي، حيث أنّني لم أحلِمْ يومًا بأيّ منهِم، وصدقوني إنْ قلت لكم إنّ الموتى يطاردون مَن يتذكّر وجوهَهم فقط لا غير!

القضيةُ السّادسة

(الرهينة، طبيب شرعي!)



إنّه يوم شمّ النسيم، حيث أتجنّب الخروجَ من منزلي؛ هربًا من تلك الروائح العجيبة التي تنتشر في الهواء، وتتسلّل إلى أنفي رغمًا عنّي، وقد كانت عادتي أنْ أقضيه على أحد الشواطئ البعيدة مع أسرتي؛ إلّا أن كوْني (نبطشي تحت الطلب) جعلني أقضيه بالمنزل بمفردي، بينما قامت زوجتي وأطفالي بالذهاب إلى منزلِ العائلة لعمل (فسيخ بارتي)؛ حيث أنّني من ألدّ أعداء

الفسيخ نظرًا لأنّ رائحته تذكرني برائحة أشمّها كثيرًا أثناء عملي!

وانتهازًا لفرصة وجودي بمفردي، قمتُ باستغلال هذا اليوم لعمل الكثيرِ من الأعمال المنزلية المؤجلة منذ زمنٍ بعيد؛ كتغيير مصباح غرفةِ الضيوف المحترق، وتغيير أجزاء من فلتر مياه الشرب، وإعادة ضبط قنوات الستالايت، و(تسطيب) نظام ويندوز جديد للكومبيوتر، وكانت كلّها إنجازات لا يمكن الانتهاء منها في ظلّ وجود أطفالي في المنزل بأيّ حال من الأحوال.

كانت الساعةُ قد قاربت الرابعة والنصف عصرًا، وقد شارفتِ النبطشية على الانتهاء تقريبًا، وكنت قد هممتُ بتناول طعام الغداء المكوّن من (مكرونة باشاميل) وسلطة، إلّا أنّ رنين هاتفي المحمول قد انطلق معلنًا نهاية آمالي بانتهاء النبطشية، والإجهاز على المكرونة الباشاميل!

كان المتصلُ هو (عمّ سبع) فني التشريح، يخبرني أنّ هناك حالة تشريح بمشرحة المستشفى العام، وأنّ قرارَ النيابة قد صدر بانتداب الطبّ الشرعي لإجراء التشريح، وعلى الرغم من أنّ المتعارَف عليه أن مثلَ تلك الحالات المتأخرة يتمّ تأجيلها إلى اليوم التالي، إلّا أنّ (عمّ سبع) أبلغني أنّ الحالة (مستعجلة)،

وأنّ وكيل النيابة بانتظارنا في المستشفى!

قمتُ بارتداء ملابسي، وأخذ حقيبتي التي اعتدتُ أخذها في مثل تلك الحالات، وكذلك البالطو الأبيض خاصّتي، وتوجّهت مباشرةً إلى المستشفى العام، وما إنِ اقتربت من المشرحة حتى وجدتُ جمعًا محتشدًا من الناس خارجَ المشرحة، وميّزت من بينهم عددًا من ضباط شرطة، فتوجّهت إليهم، وقد كنت على معرفةٍ بأحدهم فبادرتُه بالتحية، وقلت له: السلام عليكم يا (منصور باشا)، إيه.. في إيه؟

ردّ الشرطي: وعليكم السلام دكتور (مصطفى)، أهلًا وسهلًا، والله مفيش أهو قرف من بتاع كلّ يوم.

رددتُ عليه مندهشا: قرف إيه!؟ هيّ الجثة فيها مشكلة واللّا إيه؟

ردّ الشرطي: لا عادي، ده واد شمّام، شكله خدْ جرعة زيادة ومات من حوالي ساعتين، ولمّا أهله عرفوا إنّ وكيل النيابة جاي علشان يناظر الجثة، ويأمر بالتشريح، وفي تحقيق وحوارات، راحوا داخلين المشرحة، وقافلين عليهم من جوّه ومش راضيين يفتحوا.

بدا وكأنّ هناك خطأ ما، فسألته: هوّ وكيل النيابة مكانش لسّه

عمل مناظرة للجثة؟

قال الشرطي وهو يخفض صوته: لا لسّه ماشافش حاجة، أهو هناك أهو واقف مستنّي أهل الميت يفتحوا باب المشرحة.

ثمّ أشار إلى شابّ في منتصف العشرينيّات من العمر، يقف بالقرب من باب المشرحة، وحوله عدة أشخاص.

توجّهت إلى وكيل النيابة الذي كنت أراه لأوّل مرةٍ على الرغم من معرفتي بكافّة أعضاء النيابة، وقمت بتعريفِ نفسي له، فردّ عليّ باقتضاب: أهلًا وسهلًا يا دكتور.

سألته: هو حضرتك ناظرت جثّة المرحوم واللّا لسّه؟

ردّ وكيل النيابة متضايقًا: لا لسّه، على ما جيت كان أهله قفلوا المشرحة.

قلت له وقد بدا عليّ الضيق أنا أيضًا: وعلى أيّ أساس حضرتك أصدرت قرار بانتداب الطبّ الشرعي لإجراء التشريح مِن غير مناظرة الجثة؟ افرض الوفاة طبيعية، أو حتّى يمكن الضحية لسّه على قيد الحياة؟!

بدا الانفعالُ على وجه وكيل النيابة قبل أن يقول: جرى إيه يا دكتور! حضرتك هتعلّمني شغلي واللّا إيه؟! يعني أنا نازل في يوم

أجازة من استراحة النّيابة علشان أشوف شغلي، وأنت مكسّل تنزل واللّا إيه؟

في هذه اللحظة، شعرت أنّه قد بدأ في تخطّي حدوده، فقلتُ له: مبدئيًّا أنا أوّل مرة أشوف حضرتك، وواضح إنّك جديد.. بسّ ممكن أقولك إنّه علميًّا نقل المتوفى للمشرحة مش لازم يتمّ قبل ٤ ساعات من إعلان الوفاة، ودفنه مش قبل ٨ - ١٠ ساعات من إعلان الوفاة منعًا للخطأ أو دفن شخص حي، ومن الواضح إنّ حضرتك أصدرت قرار التشريح بدري قوي حتّى قبل ما تشوف الجثة، وده خطأ كبير.

صاح وكيلُ النيابة قائلًا: أنا اللي أقول مين يتشرّح ومين لأ وإمتى، وأنا محدّش يحاسبني على قراراتي، ومش هتعلّمونا شغلنا على آخر الزمن.

قلتُ له بحزم: عمومًا أنا كلامي مش معاك دلوقتِ، كلامي مع سيادة المستشار المحامي العام بعد ما أخلّص الحالة دي.

ثمّ تركته وذهبتُ للانتظار في ركن آخر مجاور للمشرحة.

كانت أحداثُ الواقعة تدور حول أنّ المتوفّى قد تمّ نقلُه إلى المستشفى وهو فاقدٌ للوعي، وذلك صحبة أمه المسنّة وأخيه، وما إنْ وصل إلى المستشفى حتّى أعلن طبيبُ الاستقبال المناوب

وفاة الشخص، وأمر بنقله إلى ثلاجة الموتى، وقام بإبلاغ نقطة الشرطة التي قامت بدوْرها بإبلاغ النيابة، وما إن تمّ نقل الجثمان إلى المشرحة حتى انتابتْ أخاه حالةٌ من الهياج قام على إثرها بطردِ عامل المستشفى المرافق لهم منِ المشرحة، وقام بإغلاق المشرحة من الداخل، وبصحبته أمّه المُسنّة.

كان بعضُ أفراد الشرطة قد حاولوا التفاوضَ مع أخي المتوفّى من أجل السماح لهم بالدخول إلى المشرحة لتمكين وكيل النيابة من أداءِ عمَلهَ، إلّا أنّ الأخ رفض باستماتة، بل وهدّد بقتل نفسه وأمّه وإحراق المشرحة في حال محاولة أفراد الشرطة اقتحام المشرحة.

كان من الواضح وجودُ حالة من التوتر والعصبية التي تشوب أداءَ المتواجدين حول المشرحة، خاصّة مع تعالي صيحات الأخ من داخل المشرحة بجُمل غاضبة على غرار (يعني مراته تقتله وانتوا تشرّحوه؟) (هتعملوا في أخويا إيه يا أولاد ....)، وكذلك كان مسموعًا بوضوح عويلُ الأم من داخل المشرحة.

كنت أنا- أيضًا- قد بدأت أشعرُ بالتوتر والضيق مِن هذا الموقف السخيف، لا سيّما أنّ الشمس قد غربت وهو ما سيجعل إجراء الصفة التشريحية أمرًا صعبًا ليلًا، ففكّرت أنه

ربما يمكنني إقناع وكيل النيابة حديث التعيين بالعُدول عن قرار التشريح أو استبداله بقرارٍ آخر أقلّ وطأة على أهل المتوفّى كإجراء كشف ظاهري، وسحب عيّنات للتحليل الكيماوي.

توجّهت لوكيل النيابة الذي بدا متحفّزًا عند اقترابي منه، وقلت له: بعد إذنك، أنا عندي اقتراح، مُمكن لو أهل الميت رافضين التّشريح التقليدي، ممكن حضرتك تعدّل القرار بإجراء كشف ظاهري، وسحب عينات دم وبول من المتوفّى لتحليلها، وممكن نعمل أشعّات مقطعية على الجثمان نستبعد من خلالها وجود لإصابات بالمتوفى، وده هيخلّي أهل المتوفى مُمكن يوافقوا على فحص الجثة.

نظرَ لي وكيل النيابة باستنكار وهو يقول: يعني هيمشّوا كلامهم عليّا واللّا إيه؟

قلتُ له بنبرة هادئة: مش مسألة يمشّوا كلامهم عليك، حضرتك أمرت بالتشريح من غير ما تشوف الجثة، وهمّا فاكرين إنّ التشريح بهدلة للميت وتقطيع في جسمه، وزيّ ما أنت شايف الوضع متوتّر، الاقتراح اللّي قلت لك عليه ده مُمكن يخلّيهم يوافقوا فيما بعد على إجراء التشريح لو اكتشفنا حاجة في الأشعة المقطعية، وأنا ممكن أقنعهم بالتّشريح بطريقتي.

بدا الاقتناعُ على وجه وكيل النيابة وقال: طب يعني الأشعة المقطعية دي تغني عن التشريح فعلاً؟ وإيه نظامها؟

قلتُ له: هيّ مش زي التشريح طبعًا، بسّ بتوضح معظم أعضاء الجسم والعظام، ومش بتاخد وقت زي التّشريح، ومفيهاش دم ولا بنفتح الجثة، وده هيكون مقبول للأهل.

فجأة صاح وكيلُ النيابة مخاطباً أخا المتوفى المعتصم في المشرحة، وقال: أنت يا بني آدم ياللّي جوّه، خلاص مفيش تشريح، الطبيب الشرعي جه أهو وبيقول هيفحص الجثة مَن برّه بس، ويعمل أشعة من غير تقطيع في الجثّة ولا دم، افتح الباب بقى علشان نشوف شغلنا.

كانت الخطوةُ التي قام بها وكيل النيابة مفاجئةً للغاية حتى أنّني شخصيًّا اندهشت من اندفاعه واتخاذه لهذا القرار دونَ مناقشة التفاصيل معي، أو مع الضبّاط المتواجدين، لربّما يكون هناك أمر ينبغي اتخاذ بعض الاحتياطات له، إلّا أنّ وكيل النيابة كان قد قام بخطوته بالفعل!

مرّت عدةُ دقائق قبل أن يردّ الأخ الغاضب من داخل المشرحة قائلًا: أنتوا فاكريني عيّل صغيّر بريالة تضحكوا عليه واللّا إيه!! فين الدكتور ده يا أولاد الـ.....؟

تطوّع أحد الضباط الحاضرين، وأشار إليّ وقال: الدكتور أهو يا بني آدم أنت، افتح الباب وبُصّ حتلاقيه.

قام الأخ الغاضب بفتح الباب، ونظر مِن خلف الباب المُوارب، وقال: أسمع الكلام ده من الدكتور نفسه.

في تلك اللحظة، نظر إليّ الجميع كأنّهم يطلبون مني الحديث، ممّا اضطرّني للنطق بصوت مرتفع: أيوه يا حبيبي، أنا الطبيب الشرعي، البقاء والدّوام لله، ربّنا يصبركم، أنا اتّفقت مع وكيل النيابة إنّنا مش هنعمل تشريح للجثة، هنآخد الجثة نعمل أشعّة مقطعية على الجسم كله، ونسحب عيّنة دم بسرنجة علشان نحلّلها، وبعدين نعمل لكم تصريح الدفن، وتاخدوه تدفنوه.

صاح الأخُ الغاضب من خلف الباب، وقال: أنا مش سامعك كويس يا دكتور، قرّب شوية من الباب علشان أمّي كمان تسمع وتطمّن علشان سمعها تقيل شوية.

بمنتهى التلقائية اقتربتُ من الباب المغلَق جزئيًّا، وقلت بنبرة عاليةٍ حاولت إضفاء صبغة وديّة عليها: يا حاجّة، البقاء لله، ربّنا يصبرك، مش هنعمل تشريح لابنك خلاص، إحنا بسّ حـ....

وفجأة فُتح الباب، وقام الأخ بمباغتتي وجَذَبي من تلابيبي بقوّة، وسحبي إلى داخل المشرحة، ثمّ قام بإغلاق الباب خلفي،

أمّا أنا فقد سقطت على الأرض داخل المشرحة بفعل المفاجأة وقوّة سحب الرجل لي.

ثمّ استدار الرجلُ الغاضب نحوي، وقد كان رجلًا ضخمًا يفوقني حجمًا وقوة، ونظر لي نظرةً يملؤها الشّر والغضب، واقترب منّي وهو يحمل مطواةً بيده، وقال صارخًا: بقى أنت عاوز تقطّع أخويا حتت، وتسرق من جتّته يا ابن الـ..!! ورحمة أخويا لأنيّمك جمبه.

ثمّ انقضّ عليّ وهو يلوّح بالمطواة، وفي هذه اللحظة كنت عاجزًا عن الحركة تمامًا بفعل المفاجأة والرّعب، وكلّ ما جال بخاطري أنّ نهايتي قد اقتربت، ونطقتُ الشّهادتين، وأغمضتُ عيني مستسلمًا لمصيري!

كنتُ قد أيقنتُ حقًّا أنّها النهاية، ومرّ شريط حياتي كلّه أمام عيني، ولكن فجأة انقضّت الأمّ المسنة على ابنها الغاضب، ودفعته بعيدًا عنّي وهي توبّخه صارخة: يخرب بيتك بتعمل إيه يا ابن الـ..! عاوز تجيب لنا مصيبة؟ يعني أخوك يموت وانت تحبس!! بتعمل إيه يا مجنون؟

فتحتُ عينيّ على ذلك المشهد، وقد كنت مازلت غير مستوعبٍ ما يحدث أمامي، الحقيقة أنني دائمًا ما كنتُ

متماسكًا أمام مئات الجثث وعشرات القصص المرعبة عن الموتى، ولكنّني كنت دائمًا لا أتمالك نفسي عندما أتعرّض لموقف خطيرٍ كهذا، وأصبح مشلولًا عن الحركة والتفكير.

انحنتِ الأمّ المسنة وهي تأخذ بيدي لأنهضَ من على الأرض وهي تقول باستعطافٍ باكيةً: والنبي يا بيه تسامحه، ده عيّل مجنون، والنبي يا بيه ما تعمل فيه حاجة، اعذره أخوه ميّت قدّامه والحكومة عاوزه تقطّعه حتت، عيل وغُلط إلهي لا يسيئك.

كنتُ قد بدأت ألتقط أنفاسي، وأتمالك أعصابي، فنظرت للأخ الغاضب فوجدته يسدّ باب المشرحة بجسده، ثمّ نظرت للأم وقلتُ لها غاضباً: اللّي عمله ابنك ده هيتحاسب عليه، ومش هيعدّي بالراحة، وهيتسجن يا حاجّة، ده لو الناس اللّي برّه مدخلوش ضربوه بالنار هنا.

صرخ الأخ الغاضب، وقال لي متحدّيًا: يضربوا مين بالنار، ده لو حدّ هوّب ناحيتنا هأقتلك وأولّع في المشرحة، وأقلبها ضلمة.

كان من الواضح أنّ الأخ قد فقدَ عقله فعليًّا، ولا طائلِ من مواجهته أو الحديث معه، فتوجّهت بكلامي للأم وقلتُ لها: خلّي ابنك يا حاجّة يعقل ويفتح الباب، ونشوف شغلنا، وأنا

والله مش هخلّيهم يعملوا حاجة في الجثة.

نظرتْ لي الأمّ وهي تبكي: منها لله البعيدة مراته، هيّ اللي حطّت له السمّ في الأكل، كانت غضبانة عند أهلها بقى لها أسبوع، ورجعت امبارح ضحكتْ على الوله، وحطّت له السم في الأكل، وأول ما مات هربتْ بسيغتها الصبح، وسابته مرمي في البيت.

كانت قصّة الأمّ مع بكائها فرصةً لكي أحاول الوصول لحلٍّ للمصيبة التي وقعت بها، فقلت لها: ربنا يرحمه يا حاجّة، أنا هنا والله العظيم علشان أجيب له حقّه، خلّيني طيب أسحب منه عيّنة دم بسرنجة من غير تشريح علشان أعرف المُفترية مراته حطّت له سمّ إيه، وآخد الجثة أعملّها أشعة يمكن تكون خبطته في دماغه، واللّا عملت فيه حاجَة، نعرف نسجنها ونبهدلها بعد كده.

كانت الأمّ قد بدأت تهدأ، وظهر عليها الاقتناعُ بحديثي، إلّا أنّ الأخ الغاضب قاطع حديثي قائلًا: متسمعيش كلامُه يا امّا، بيضحك علينا، وهياخدوا أخويا يقطّعوه برّه والمصحف، دي حكومة بنت .....

توجّهت بحديثي مرّةً أخرى للأمّ قائلًا: يا حاجّة، أقسم بالله ما

هيحصل، مفيش برّه مشرحة تانية، وأنا اتّفقت مع وكيل النيابة خلاص، متخلّيش الواد ابنك يبوّظ الدنيا ويضيّع نفسه، خلّيه يفتح الباب وأنا هقول إنّنا كنّا بنتكلّم ومحصلش حاجة.

نظرتِ الأمّ لابنها وقالت: خلاص يا ابني خلّي الدكتور يخرج ويشوف شغله، الراجل حلف بالله، بلاش تجيب لنا مصيبة .

صاح الأخُ غاضباً: المصيبة جت خلاص، أخويا مات واللّي حصل حصل، الحكومة اللّي برّه دي لو دخلت هتقتلنا إحْنا كمان.

في هذه اللحظة، شعرت أنّه ربما عليّ محاولة الحديث مع الأخ الغاضب والتقليل من مخاوفه فقلت له: بصّ يا أخ انت، طول ما أنا معاكم محدّش هيقرّب لكم، وأنا كلمتي واحدة، هآخد عيّنة الدم من أخوك ونعمل له أشعة، ونشوف مات ازّاي.

بدا التّرددُ على الأخ الغاضب وهو يقول: متاخدش أخويا برّه، خدْ عيّنة الدم واطلع حلّلها برّه، واعمل تصريح الدفن.

كان هذا تطورًا إيجابيًّا يتيح لي النجاةَ بنفسي على الأقل من هذا المأزق الجنوني، وعند خروجي تصبح الكرةُ في ملعب الشرطة والنيابة، وليفعلوا ما يحْلو لهم، فقلت للأخ: حاضر، بصّ ناولني الشنطة بتاعتي اللّي عند الباب دي آخدْ منها سرنجة أسْحب

فيها العينات.

فقام الأخ برمي الشنطة لي، وكنت معتادًا أن أضع فيها أدوات بسيطة مثل سرنجة وسماعة طبية وكشاف طبي صغير (torch)، وقلت للأمّ محاولًا استخلاص أيّ معلومات منها قبلَ أخذ العينة من جثة المتوفى: هوّ المرحوم يا حاجّة مكانش بيتعالج من أيّ حاجة، أو بيتعاطى أي أدوية؟

ردّت الأمّ بحزن: لا يا ابني، ده صحته كانت بُمب، ولا عمره خدْ برشامة، منها لله مراته بنت الـ..، هي اللّي جابت أجله.

نظرتُ إلى الأخ وسألته نفسَ السؤال فقال بتردّد: هوّ كان كويس بسّ أحيانًا كان بياخد برشام علشان يعرف يشتغل في الورشة.

سألته بفضول: البرشام ده اسمه إيه؟

ردّ الأخ قائلًا: وكتّاب الله ما اعرف.. هوّ اللّي كان بيقول لمّا بأشوفه بيآخد حبوب حمرا كده.

كان يبدو أنّ هناك شيئًا ما يُخفيه كلّ من الأخ والأمّ عني بما يتعلق بتعاطي المتوفّى لبعض الممنوعات أو العقاقير المخدرة، ممّا من شأنه أن يساعدني في تخمين سبب الوفاة- إلّا أنّ كليهما لم يحاولا مساعدتي.

تقدّمت أنا بخطواتٍ هادئة ناحية الجثمان المسجّى على رخامة المشرحة، والمغطّى بملاءة بيضاء، رفعتها على مهل، وكان أسفلها يرقد جثمانُ رجل في منتصف الثلاثينيّات من العمر شاحب البشرةِ، لا تبدو على جسده أيّ إصابات ظاهرة، وكان هناك سائلٍ رغويّ يخرج من فمه، قمتُ بلمس جلده فوجدته باردًا إلى حدّ ما.

قمتُ بإخراج السرنجة من حقيبتي وإزالة غلافها، وبحركةٍ تلقائية لازمتني منذُ كَنت طبيباً للطوارئ في السابق؛ قمت بجسِ نبض المريض من جهة الرسغ الأيمن، وعلى الرغم من أنّه من المفترض ألّا يوجد نبضٌ بالميت إلّا أنني فعلتُ تلك الحركة بصورةٍ عفوية، ولوهلة شعرتُ بنبض ضعيف، ولكنّني حاولت إقناعِ نفسي أنّ ما شعرت به هو النبض في أطراف أصابعي، فقمتُ بوضع أصابعي فوق العنق محاولًا تحسّس شرايين الرقبة للتأكّد من حقيقة ما شعرتُ به فأحسست هذه المرّة بنبضٍ ضعيف للغاية، هذه المرة كنتُ متأكّدًا أنّه لم يكن نبضي أنا !

أسرعتُ وأخرجت السمّاعة الطبية من حقيبتي، وقمتُ بوضعها على صدر المتوفّى فسمعت صوتَ ضربات القلب والتنفس خافتة للغاية بفعل وجودِ كثيرٍ من السوائل على الرئتين، ولمزيدٍ

من التأكد لحصت حدقتي العين باستخدام الكشّاف الطبي الصغير (torch)، وتبيّنت أنّه على الرغم من اتّساع حدقتي العينين إلّا أنّهما تتحركان ببطء شديد، وفي هذه اللحظة لم يعد لديّ شكّ أن الشخص الماثل بين يدي ليس ميتًا، بل هو في غيبوبة عميقة.

في هذه اللحظة، انتفضت وصرختُ بأعلى صوتي مناديًا الأخ والأمّ قائلًا: ابنكم لسّه فيه الروح، يلّلا نخرّجه على المستشفى فوق بسرعة.

كانت كلماتي أشبهَ بقنبلة انفجرت في وجهيْهما، فما كان من الأخ إلّا أنْ قال: أنت بتضحك علينا علشان تسرق الجثّة وتبهدلوها، قسمًا بالله لأقتلك لو قرّبت من أخويا.

لحظتها لم أتمالكْ نفسي ولم أشعرْ بنفسي إلّا وأنا أهاجم الأخ وأجذبُه من ملابسه بقوّة وأنا أصرخ: أخوك صاحي يا ابن الـ ......، أقسم بالله صاحي وأنت اللّي هتقتله، مفيش وقت للبلطجة بتاعتك دي، أخوك هيضيع منّنا في أي لحظة.

صرختِ الأمُ قائلة: أبوس إيدك يا دكتور ما تضحك علينا، ضنايا عايش يا دكتور؟

ثمّ انحنت على يدي تقبّلها، فما كان مني إلّا أنْ قلت لها: أقسم

بالله عايش يا حاجّة، بسّ في غيبوبة ويا نلحقه يا منلحقهوش، أبوس إيدك يا حاجّة خلّي ابنك يفتح الباب، يا إمّا هيبقى عندك ابن ميت وابن مسجون وأنتِ السبب.

نظرتِ الأمّ إلى ابنها الغاضب، وقالت له متوسّلة: سايقة عليك النبي تخرّج أخوك من هنا يا ابني، الدكتور بيقول أخوك في غيبوبة، افتح بقى.

نظر إلينا الأخ بفزع، بينما مازال يسدّ باب المشرحة وقال: الحكومة هتسجنّي وتقتلني لو فتحت الباب.

قلتُ له وقد بلغتُ ذروة غضبي: اطلع اهربْ من الشباك اللّي فوق التلاجة دي بسرعة، أنا مش هأفتح الباب إلّا لمّا أنت تخرج، الشباك بيطلّع على الجنينة ورا، محدّش هيشوفك.

أدّى صوتي العالي إلى محاولة بعضِ أفراد الشرطة اقتحامَ المشرحة، بينما تعالت صرخات الأم تتوسل لابنها الغاضب كي يرحل، وكان موقفًا جنونيًا بكلّ معنى الكلمة، ولم أشعر بنفسي إلّا وقد تجاهلت وجود مطواةٍ مع الأخ الغاضب، وانقضضت أجذبُه من ملابسه بعيدًا عن باب المشرحة وأنا أصرخ: اهربْ بقى واللّا أخفى في ستّين داهية، أخوك هيمووووت.

لم يضيع الأخُ الوقت، وبالفعل قفز فوقَ ثلاجة حفظ الموتى

ثمّ عبر الشباك، وما إن اختفى حتى أسرعت أنا بفتح باب المشرحة وأنا أصرخ قائلًا: ترولّلي بسرعة هنا يا جماعة، الراجل لسّه حيّ، يلّا بسرعة.

فوجئ الجميع بخروجي من المشرحة، وأسرع أحدُ العمّال بإحضار نقّالة، ووضعنا عليها الرجل وتحركنا به بسرعة إلى غرفة الإفاقة في استقبال المستشفى، وكانت الأمّ متشبّثة بيد ابنها الغائب عن الوعي تصرخ وتولْول، وترجو من الجميع إنقاذ ابنها.

وما إن وصلنا إلى غرفة الإفاقة حتى بدأ الأطباء المناوبون إجراءاتِ الإفاقة للرجل، وسحب التحاليل اللّازمة، بينما انتظرتُ أنا بالخارج ألتقط أنفاسي، وكان وكيلُ النيابة مذهولًا من سرعة الأحداث المتلاحقة وقدِ اقترب منّي وهو يتساءل: هوّ المتوفى صاحي فعلًا يا دكتور؟

أجبتُه بغلظة وصوتٍ عال: أيوه، طلع حيّ، بسّ في غيبوبة عميقة، ممكن يكون واخد جرعة عالية من دوا منوّم، أو مخدّر خلّاه يدخل في الغيبوبة دي.

بدا الاندهاشُ على وجه وكيل النيابة وقال: هوّ انت عرفت ازّاي؟

قلتُ له مستنكرًا: عرفت ازّاي!! أنا شغلتي أشخّص الوفاة

حصلت واللّا لأ.. مش شغلتي تشريح ميتين بسّ، أنت بقى شغلتك تبعت حدّ يشوف بواقي شرايط دوا فاضية في بيت المريض علشان نعرف هو خد إيه علشان نعرف نعالجه صح.

ثمّ انصرفت تاركًا إياه في تلك المهزلة متكاملة الأركان ومتعدّدة الأطراف، وذهبت إلى منزلي وأنا في قمّة الإنهاك النفسي والجسدي، حتى أنّني لم أتحدث مع أيّ من أفراد أسرتي ليلتها ولو بكلمة، ونمتُ ليلتها بعمقٍ من فرط التعب.

في صباح اليوم التالي، توجّهت إلى مكتبي وأنا في مُنتهى الغضب، وقمتُ بكتابة مذكرة شديدة اللهجة أشكو فيها كلًّا من الطبيب الذي أعلن وفاةَ الرجل بصورةٍ خاطئة، وكذلك أشكو فيها وكيلَ النيابة المبتدئ الذي عاملني بطريقةٍ غير لائقة، وأصدر قرارَ تشريحٍ دون مناظرةِ الجثة التي اتّضح- فيما بعد- أنّ صاحبها حيّ وليس بميت، وقمتُ بإرسال المذكرة إلى مكتب المحامي العام المُشرف على النيابة المختصّة.

وفي الأيام القليلة التالية، قمتُ بالاتصال ببعض الأطباء في المستشفى العام لمعرفة ما وصلت إليه حالة ذلك الرجل، وما هي ظروفُ مرضه، كان الرجلُ يعمل بورشة سيارات، وكان على خلافٍ دائم مع زوجته، وفي يوم الواقعة وعقبَ هجر زوجته

لبيته قامَ بتناول ٢٠ كبسولة من عقار الـ (سيكونال) المنوم بغرضِ الانتحار، ممّا أدّى إلى دخوله في تلك الغيبوبة العميقة، إلّا أنَّ مجهودات الأطباء نجحت في إنقاذه ولكنّه للأسف عانى من مُضاعفات بالجهازيْن العصبي والحركي نتيجة الغيبوبة العميقة التي تعرّض لها.

بالنسبة لي، اتّضح الموقف كاملًا فقد كان عقار الـ (سيكونال) يحتوى على مادة الـ (Secobarbital) وهي مادّة منومة يؤدّي تناولُ الجرعات الزائدة منها إلى غيبوبة عميقة تجعل الضحيةَ أشبه بالميت في حالة تسمّى علميًّا (apparent death) حيث يكون الضحيةُ ميتًا ظاهريًّا نظرًا لأن جميع العمليات الحيوية للجسم تكون في أقلّ معدّلاتها وأقرب للوفاة منها للحياة، ومثل تلك الحالة من الشائع ألّا يتمّ تشخيصها بواسطة الأطباء المبتدئين.

مرّت عدةُ أيام قبل أن أتلقّى استدعاءً من النيابة العامة للمثول في تحقيق حول الواقعة، فظننتُ أنه ربما تمّ التّحقيق أيضًا في المذكرة المقدّمة مني، وبالفعل توجّهت للنيابة وما إن وصلتُ حتى طلبوا مني التوجه لمكتب رئيس النيابة الذي ما إنْ طرقت البابَ ودخلت إلى مكتبه حتى قام بالتّرحيب بي، وتبادلنا بعض عباراتِ المجاملة، وكان وكيلُ النيابة الذي قمتُ بكتابة

المذكرة ضدّه موجودًا أيضًا بالمكتب.

وما هي إلّا لحظات حتى استدعَى رئيس النيابة متّهمًا ما حتى يبدأ التحقيق، واتّضح أنّ المتهم هو (الأخ الغاضب)؛ الذي ما إنْ رآني حتى طأطأ رأسَه في الأرض بخجل.

بدأ رئيسُ النيابة التحقيق وسألني: دكتور (مصطفى)، هوّ ده المتهم اللي تعدّى عليك في المشرحة؟

أجبتُ بهدوء: محدّش تعدّى عليّا في المشرحة يافندم.

نظرَ لي رئيس النيابة باندهاش وهو يقول: إزّاي يا دكتور!!؟ المتّهم اللي قدامك ده جميع الشهود شافوه وهو بيتعدي على موظف حكومي أثناء تأدية عمله، والموظف ده يبقى حضرتك.

رددتُ بهدوء مبتسما: أوّلًا الواقعة حصلت بينما أنا لم أبدأ عملي يا فندم لأنّ عملي يبدأ بعد معاينة وكيل النّيابة المختص للجثمان، وده محصلش، ثانيًا أنا تطوّعت بالتّعامل مع المتهم بصفة ودية وليست رسمية.

ردّ رئيس النيابة بانفعال: يا دكتور، الشّهود كلهم شافوه وهو بيشدّك لداخل المشرحة وبيحتجزك.

قلتُ بهدوء: هوّ فعلًا شدّني علشان أشوف جثة أخوه بصفتي

طبيب، بسّ هو محتجزنيش ولا حاجة بدليل إنّي طلعت من المشرحة سليم.

تساءل رئيسُ النيابة مستنكرًا: أومّال هرب ليه من المشرحة إذا كان معملش حاجة غلط؟

أجبتُه بهدوئي المستفز: أنا طلبت منه يهرب علشان الموقف كان حرج، وأنا خفت إنّ انشغال الشرطة والنيابة بمحاولة الإمساك به تضيّع علينا فرصة إنقاذ أخوه اللّي كان في غيبوبة.

قال رئيس النيابة بغضب: يافندم، المتّهم اعترف إنّه هدّدك بمطواة وأنت جوّه المشرحة، دي كمان محصلتش!؟

في تلك اللحظة، لم يكن بمقدوري الكذب أو التماس أيّ عذر للمتهم، فنظرت إلى المتهم ووجدته ينظر إليّ نظرات تحمل مزيجًا من الامتنان والحزن، فما كان منّي إلّا أنْ قلت لرئيس النيابة: بعد إذن حضرتك يا ريت المتّهم يخرج برّه علشان في كلام مهمّ عاوز أقوله لحضرتك.

حينها أمر رئيسُ النيابة بإخراج المتهم خارجَ المكتب، ثمّ نظر إليّ بغضب وهو يقول: أنت بتعرقل العدالة بطريقتك دي يا دكتور، الناس شافوا الواد وهو بيشدّك جوّه المشرحة وهوّ اعترف إنه هددك بمطواة، إيه سبب شهادتك الغريبة دي؟

رددتُ بهدوء وحزم، وأنا أقول: شوف يا معالي المستشار، العدالة بتقول إنّ الطبيب اللّي تسرع وأعلن الوفاة بالخطأ يتحاسب، وإنّ وكيل النيابة اللّي اتسرّع وانتدبني لإجراء التشريح قبل ما يشوف الجثة يتحاسب، ومن الواضح إنّ المذكرة اللّي أنا كتبتها محدّش اهتمّ بيها، والواضح برضه إنّ المتهم ده هو الوحيد اللّي هيتحاسب، الحقيقة إنّ المتهم وأسرته ضحية لأخطاء الطبيب المبتدئ ووكيل النيابة المبتدئ برضه، وردّ فعل المتهم وأسرته كان عفَوي لأنهم ناس شكلهم على قدّ حالهم وتفكيرهم محدود، وأنا مش هتسبّب في حبس المتهم اللّي هو العائل الوحيد لأمّه المسنة وأخوه المشلول وأسرته، العدالة بتقول المتهم والطبيب ووكيل النيابة يتحاسبوا، والرحمة تقتضي مسامحة المتّهم، وأنا مع الرحمة مش مع العدالة في القضية دي.

نظر لي رئيس النيابة مندهشا وهو يقول: إيه الكلام ده يا دكتور؟

رددتُ بسرعة: ده اللي عندي، أنا لا أوجّه أيّ اتهام لأي شخص، وكلّ اللي حصل عبارة عن سوء تفاهم وسوء تقدير من الجميع، وأنا مسامح في حقي.

ابتسم رئيسُ النيابة وقال: مش عارف أقولّك إيه يا دكتور.

أحرجتني بكرم أخلاقك، عمومًا أنا باعتذر لك عنْ سوء التفاهم اللّي حصل بسبب (شريف) بك.

ثمّ نظر لوكيل النيابة بجواره نظرةً ذات مغزى، دفعته لكي يقول هو أيضًا: أنا آسف يا دكتور (مصطفى) عنْ موقفي، ويا ريت تقبل اعتذاري وتتفضّل تشرب القهوة معايا في المكتب.

رددتُ بهدوء وقلت: لا مفيش حاجة، إنْ شاء الله نأجّل القهوة لوقت تاني علشان زميلي في المكتب لوحده وعندنا قضايا كتير.

قال رئيسُ النيابة موجّهًا حديثه لسكرتير النيابة: يُخلَى سبيل المتهم (.....) من سراي النيابة، ويُغلق التّحقيق في ساعته وتاريخه.

عندها نهضت بسرعة، واستأذنت للانصراف، وما إنْ خرجت من المكتب حتى وجدت المتّهم رفقة الحرّاس، ووالدته مُنتظرين أمام المكتب، وما إنْ رأتني والدته حتى استوقفتني، ويبدو أنها عرفت ما بَدَر منّي بحقّ ابنها المتهم، وقالت: ربّنا يخليك يا دكتور ويسترها معاك دنيا وآخرة، ولا يوقّعك في ضيقة.

رددتُ عليها قائلًا: ربّنا يخليكِ يا حاجّة.

ردّت متسائلة: طب عيادتك فين يا دكتور علشان نيجي نكشف عندك؟

قلتُ لها: والله يا حاجّة معنديش عيادة.

قالت: طب بتبقى في المستشفى إمتى نجيلك؟

رددتُ مبتسمًا: مش باشتغل في مستشفيات يا حاجّة والله.

بدا الاندهاشُ على وجهها وهي تقول: يعني لا بتروح عيادة ولا مستشفى، أومّال دكتور ازّاي يا ابني؟!

قلتُ لها ضاحكًا: أمر الله يا حاجّة، ويخلق ما لا تعلمون!

وهنا، انفجر جميعُ الحاضرين بالضحك، ولأوّل مرةٍ منذ زمن بعيد تنتهي قضية بنهاية نادرة في الطب الشّرعي، نهاية سعيدة!

وحْدي في المشرحة

حدث بالفعل



السابعة مساءً، وأنا بمفردي في ذلك المبنى المكوّن من ١٠ طوابق. والمشرحة الشهيرة تقبع في البدروم، لم أكنْ معتادًا أن أظلّ بمفردي حتى هذا الوقت، ولكن ضغط العمل جعلني أفعل.

تركتُ باب مكتبي مفتوحًا، بينما كنت منهمكًا في كتابة التقارير، وفحص القضايا..

فجأة، لاحظت أنّ هناك قطة تقفُ عند باب المكتب تحدقُ بي، وما إن انتبهتُ إليها حتى رحلت بهدوء عجيب!

بعدَ دقائق يتناهى إلى مسامعي أصواتُ صريرِ أبواب عبرَ

الطرقات المجاورة لمكتبي، فنهضت مسرعًا لتفقّد ما يحدث، فوجدتُ كلّ الأبوابِ مغلقة، ولا يوجد مصدرُ لهواءٍ من شأنه تحريك الأبواب. عدتُ إلى مكتبي وقد بدأتِ الشّكوكُ تتسلل إلى قلبي حولَ حقيقة ما يحدث في المبنى.

لحظات، وأشعرُ ببرودة غريبة في المكان، أنظر إلى مكيّفِ الهواء فأجدُه يعمل على درجة حرارة متوسّطة لا تفسّر هذه البرودة!

هنا، تذكّرت فيلم (Sixth sense)عندما كان يشعر أبطالُ الفيلم بالبرودة عندما يقتربُ منهم شبحُ أحد الموتى، أحدُ أكبر عيوبي أنّني أحاول ربطَ الأحداث ببعضها البعض، ولحظتها قرّرتُ إنهاء عملي وطباعة التقارير التي انتهيتُ منها، والاكتفاء بهذا القدر من الإشارات المرعبة!

أعطيت أمرًا لطباعة الأوراق، ولكن أصدرت الطابعة إشارةَ نفادِ ورق الطباعة، فاستدرت نحو مكتبي لأَخْذ بعض الأوراق، وتلقيم الطابعة، فجأة تبدأ الطابعةُ في العمل وكأنّ أحدًا قد أعطاها أمرًا آخر بالطباعة، ولكنْ ليس هناك أحد في المكان سواي !

أسرعتُ بجمع تلالِ الأوراق والقضايا التي تغطّي مكتبي،

واتّجهت مسرعًا إلى غرفة أخرى حيث تقع خزانةُ الأوراق حيث وضعت كلّ شيء وأغلقت الخزانة، ثمّ عدت مسرعًا إلى مكتبي ليساورني الشك: هل تركت بابَ المكتب مفتوحًا أم مغلقًا؟!

السّؤال الذي بدأتُ أسأله لنفسي: هل كنت بمفردي طيلة الوقت؟ ومَن كان بصحبتي ولا أراه؟

أغلقت أنوارَ المكتب والأبواب، وهُرِعت إلى المصعد لأهبط إلى الجراج، حيث المَخرج الوحيد المفتوح للمبنى، يأتي المصعد، وتنفتح أبوابه لأكتشف أنّ إضاءته معطلة!

ربّما كان هذا نفقًا أخيرًا لاحتجازي طيلةَ الليل في المبنى، غيّرت رأيي ونزلتُ عبر السلالم راكضًا وتوجّهت إلى الجراج حيث لم أرَ العامل المُناوب المسئول عن الأمن، ليس هذا فحسب، بل أيضًا بابُ الجراج مغلقٌ بقفل ضخم، يبدو أنّها ليلةٌ مليئة بالمتاعب.

أسمع صوتًا ينادي من خلفي (لا مؤاخذة يا دكتور، كنت نايم)، أستدير نحو مصدرِ الصوت لأكتشف أنه العامل وقد ظهرَ من العدم، لا أعرف كيف لم أره على الرغم من أنّ المكان محدود؟!

أسرعتُ في الخروج من البوابة دونَ أن أنظر خلفي، وأنا على يقينٍ من أنّني لم أكن بمفردي في المبنى طيلةَ ذلك الوقت.

يبدو أنّ الوافدين الجُدد إلى المشرحة قد قرّروا أن ينطلقوا منها ليسيطروا على كامل المبنى، وألّا ينازعهم فيه أحد.

الأهمّ من هذا أنني أصبحتُ على يقين أنّني كنت شخصًا غيرَ مرغوب في تواجده في هذا المبنى عند حلول الظلام، وأنّه قد تمّ طردي بطريقةٍ لطيفة هذه المرة، أمّا المرة القادمة فلا ألومنّ إلّا نفسي !

القضيةُ السّابعة

(حرب أهلية)



(الْحَقني يا دكتور مصطفى)!

لوهلةٍ لم أصدّق أذناي عندما سمعتُ هذه العبارة تنطلق عبر الهاتف الذي أيقظني في منتصف الليل، حقًّا لم أعدْ أسمع تلك العبارة منذ أن كنت طبيباً للطوارئ منذ أكثرَ من سبعة أعوام، كما أنه من غير المعتاد أن يسمعَها الطبيب الشرعي الذي أصبحت معظمُ الحالات التي يتعامل معها من باب (كلّ شيء راح وانتهى)!

كانت العبارةُ السابقة صادرةً من المقدم (علاء الجوهري) الضّابط بالمباحث، والذي تربطني به علاقة عملٍ لا أكثر، ولا أعتقد أنّه يحتاجني في استشارةٍ طبية عاجلة في مثل هذا الوقت

المتأخّر ليلًا.

حاولت بصعوبةٍ استيعابَ الأمر وأنا أردّ على استغاثته قائلًا: أيوه يا (علاء بك). خير في إيه، كفى الله الشّر!

ردّ (علاء بك) في اضطراب: يا دكتور، الحقني، أنا في مستشفى (....) المركزي، تعال حالًا.

زادَ اندهاشي بسبب إصراره على الاستنجاد بي، ممّا دفعني للقول: ألف سلامة عليك، أنت تعبان واللّا حاجة، أكلّم حدّ من الزملاء الأطباء في المستشفى أوصّيه عليك؟

قال ونبرةُ صوته تزداد توترًا: أنا مش تعبان يا دكتور، أنا محبوس في مشرحةِ المستشفى مع أمين شرطة، وحضرتك الوحيد اللّي تقدر تنقذنا.

أصابني التوتر أنا أيضًا، ورددتُ عليه بحدّة قائلًا: حضرتك عاوزني أنا أنقذكم!! هوّ حضرتك بتهزّر؟

أجاب (علاء) متوسّلًا: أقسم بالله ما باهزّر يا دكتور، فيه واحد اتقتل في البلد هنا، وجثته اتنقلت المشرحة، وبمجرّد إنّ وكيل النيابة عاين الجثة وأصدر قرار التشريح؛ أهله عملوا هيصة، وحاولوا ياخدوا الجثة بالقوّة، ولمّا حاولت أمنعهم الأمر اتطوّر، واضطرّيت اقفل المشرحة عليّا من جوّه، والأهل بيهدّدوا

إنهم هيقتحموا المشرحة صلاة الفجر علشان يآخدوا الجثة، وأنا مقدرش أخلّيهم يعملوا كده إلّا لمّا الطب الشرعي يشوف الجثة، دي مسئولية قدّام ربنا.

بدا التوترُ على صوتي وأنا أسأله: هوّ إيه ظروف الحالة أصلًا علشان يحصل القلق ده كله؟

أجاب (علاء) قائلًا: ده راجل عنده حوالي ٣٥ سنة، من عيلة (.....)، والعيلة دي بينها وبين عيلة تانية مشاكل وتار وقرف، النهارده بعد صلاة العشاء مراتُه بتقول إنّ واحد من العيلة التانية جه اتهجم عليه وضربه بشومة على دماغه وقتله، ومن ساعتها والبلد والعة، والعيلتين بيضربوا نار على بعض، ده غير الحرق المتبادل للبيوت والمحلات، البلد متقفّلة خالص، ومفيش حدّ عارف يدخل ولا يخرج منها، حتى قوّات الشرطة والعمليات الخاصة واقفة على مدخل البلد لأنّ العيلتين هدّدوا بضربها لو حاولت تقتحم البلد.

كانت التفاصيل التي ذكرها (علاء بك) مُرعبة وخطيرة، ولكنها في نفس الوقت أثارت حفيظتي حيث يبدو أنّه لا دورَ لي في الأحداث، والمسألة تخضع لتصرّف الجهات الأمنية، ممّا دفعني للقول: طيب حضرتك أنا دوري إيه في الموضوع ده!؟

أنا مقدرش أشتغل في الظروف دي، وكمان التأمين غير كافي أو معدوم،

قاطعني (علاء) متوسّلًا: أبوس إيدك يا دكتور ما تسيبني لوحدي، أنا بالكاد أقنعت الأهلية إن الطبيب الشّرعي ييجي يشوف الحالة، ويخلّص قبل الفجر، علشان بسّ حقّ الراجل ميضيعش، أنا حاولت أكلم وكيل النيابة أقولّه يكلّمك رسمي، بسّ هو قالي ميقدرش يجبر الطبّ الشرعي إنه ييجي بالليل في الظروف دي، وأنت الوحيد اللّي ردّيت عليّا من الزملاء في إدارة الطب الشرعي، وماعادش في وقت أصلًا إني أشوف حدّ تاني، و للأسف مش معايا إلّا أمين الشرطة واتنين طبنجات تسعة مللي.

كانت نبرة صوته تشير إلى أنّه على حافّة الانهيار، وأنّه حقًّا لم يعدْ له ملجأ سوى الاستعانة بي، وفي محاولة يائسة منّي للهروب من هذا الموقف قلت: طيب أنا دلوقتِ مفيش ضمانات ليّا إني أبقى آمن أو أقدر أدخل البلد من الأصل، يبقى لازمتي إيه؟

ردّ (علاء) مسرعًا: حضرتك في عربية شرطة هتبقى مع إسعاف الطب الشرعي من الحتة اللي تناسبك لغاية مدخل البلد، ومن هناك الإسعاف هتدخل لوحدها، والأهالي مش

هتتعرّض لها وعلى ضمانتي.

كانت كلماته قد أغلقتْ أمامي أيّ باب للهروب من هذه الورطة، فما كان مني إلّا أن أجبته قائلًا: خير إن شاء الله، خلال ساعتين أكون عندك، بسّ أنت تابعني بالتليفون وعرّفني الوضع بالظبط، وإوعى تستعمل السّلاح لو الموقف اتطوّر، كده هتقلب مذبحة.

بدا الارتياحُ على صوت (علاء) وهو يقول: حاضر يا دكتور، ربّنا يكرمك يا دكتور، أقسم بالله جميلك ده على دماغي طول عمري.

أنهيتُ المكالمة التي أيقظت زوجتي أيضًا، والتي بادرتني قائلة: خيييير يا مصطفى في إيه؟!

أجبتُها قائلًا: مفيش حاجة. مأمورية تشريح بسيطة كالعادة.

نظرتْ إليّ زوجتي نظرةً تنمّ عن عدم التصديق، وسألتْ في تحفّز واضح: متتأجلش للصبح؟!

تجاهلتُ سؤالها وأنا أجري اتّصالًا بسائق الإسعاف الخاصّ بالطب الشرعي، والذي ما إن أخبرته بظروف الواقعة حتى ردّ عليّ بنبرةٍ لا تخلو من التبرّم: والله يا دكتور (مصطفى) أنت عارف إني عمري ما أتأخّر عليك، بسّ واضح إنّ البلد والعة

وفيها مصيبة، وأنا مقدرش أطلع مشوار زي ده من غير تأمين كفاية، وتكليف رسمي، سامحني يا ريّس، بسّ أنا موظف غلبان، وباجري على عيال، ولو حصل حاجة لا قدّر الله محدّش هيبكي علينا، ولا يصرف على كوم العيال اللّي عندنا، اصرفْ نظر عن الموضوع وسيب الحكومة تتصرّف، وما يقدر على القُدرة إلّا ربنا!

كانت كلمات السائق تعني أنّني سأخوض هذه المأمورية وحيدًا، فلا وقت لدي حتّى للاستعانة بفني التّشريح الذي يقطن على بُعد ثلاث ساعات في محافظة أخرى، فما كان مني إلّا أن اتصلت بـ(علاء بك) مرّة أخرى أخبره أن يرسلَ سيارة الشرطة إلى مقرّ إدارة الطب الشرعي حيث ستصطحبني حتى مدخل القرية، ومِن مدخل القرية سأستقلّ سيارة إسعاف إلى المستشفى حيث يرقد جثمان الضحية.

قمتُ سريعًا بارتداء ملابسي، والاستعداد للخروج في تلك الليلة الباردة من ليالي الشتاء، وما إن اقتربت مِن باب الشقة حتّى اعترضت زوجتي طريقي قائلة: لو سمحت بلاش تروح المأمورية دي!

أصابتني الدهشة من موقفِها العجيب الذي أراه لأوّل مرةٍ

منذ أن بدأت عملي كطبيب شرعي، فحاولت أن أتداركَ الموقف، وقلت لها بحنان وأنا أربّت على كتفها: دي حالة بسيطة يا حبّي، وإن شاء الله هارجع خلال ٣ ساعات، والشرطة وكلّ التجهيزات موجودة.. متخافيش.

نظرتْ إليّ وقد بدأت الدموعُ تنساب من عينيها وقالت: لأ الحالة مش بسيطة، والشرطة مش عارفة تسيطر على الوضع، أنا كنت صاحية وسمعت الظابط وهو بيزعّق في التليفون وسمعت كلامك معاه، سيبهمَ يتصرّفوا مع بعض، همّا شرطة وأهالي مع بعض، إنّما أنت دكتور مالكش في المصيبة دي .

كانت نبرةُ صوتها ودموع عينيها تمزّقان قلبي من الداخل، ولكن أيضًا توسّلات الضابط كانت تتردد في ذهني بقوة، وفي الحقيقة أنّني لم أعتدْ أن أخذل أحدًا استنجد بي، خاصة مع خطورة الموقف، فما كان مني إلّا أن طبعت قبلةً على جبينها وقلتُ في حزم: متخافيش، ربنا يسترها، خلّيكِ بسّ متابعة معايا بالتليفون علشان تطمّني عليّا.

ابتعدتْ زوجتي عن طريقي، وقالت في لهجة بدا عليها الاستسلام: اللي تشوفه!!!

وما إن فتحت بابَ الشقة، حتى فوجئت بها تنزل مسرعةً

على الدرج وتطرق بابَ شقة والديّ اللّذيْن كنت أقطنُ معهما في نفس العمارة، وما هي إلّا لحظات حتى فتح والدي البابَ فبادرته زوجتي قائلة: إلحق يا عمّو، مصطفى نازل مأمورية تشريح دلوقتِ وفيها مشاكل وضرب نار، ومفيش تأمين للمستشفى، ومش راضي يأجّل الحالة للصبح، يرضيك كده؟

ثمّ انهمرتْ زوجتي في البكاء، ممّا دفع والديَ لدعوتنا إلى داخل المنزل، ونظر لي وقال في تعجب: حالة إيه دي اللّي تنزّلك من بيتك في وقت متأخّر، وجوّ سيّئ زي ده؟ النهار له عينين.

رددتُ عليه بهدوء: والله للأسف لو انتظرت للنهار في أشخاص ممكن تتعرّض للخطر، وفي بني آدم حقّه هيضيع.

في هذه اللحظة، دخلت أمّي في الحوار، وكانت قد استيقظت على صوتِ بكاء زوجتي، وقالت أمي بانفعال: يتْحرقوا كلهم ويتحرق الشّغل اللّي هتضيّع نفسك علشانه، يا ابني أنت عندك عيال لسّه كومة لحمة حمرا ومحتاجينك، أقسم بالله لو خرجت من البيت مش هابقى راضية عنك!!

كانت تلك الجملة قاسية حقًّا، وأثارت حزني بشدّة، كنت أعلم مدى حبّ أمّي لي، ومدى خوفها عليّ، وكانت هي تعلم مدي

بِرّي بها وحرصي على إرضائها، ولكنّ الموقف لم يكن يحتمل ما قالته، كما أنني لم أكنْ على استعداد للتخلي عمّن استنجد بي، وكان الوقتُ يداهمني فعلًا ممّا جعلني أُتوجه بالحديث لأمي قائلًا في تأثر: معلش يا أُمّي، أنتِ عارفه قدّ إيه أنا باسمع كلامك، وعاوزك متغضبيش عليّا، بس ده شغل وأرواح ناس ومقدرش أقصّر فيه، اللّي أنا بأعمله دلوقتِ وكلّ تصرفاتي هيّ نتيجة تربيتكم ليّا، أنتوا اللي علّمتوني يبقى عندي ضمير في شغلي، أنتوا اللي علمتوني يعني إيه لازم أساعد الناس وأقضي حوائجهم، أنتوا اللي حفّظتوني حديث (مَنْ فَرَّجَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوْمِ الْقِيَامَةِ)، قبل ما تلوموني أو تغضبوا عليّا، راجعوا نفسكم في تربيتكم ليّا، لو كانت غلط يبقى ماعادش في مجال لتصحيحها، ولو كانت صحّ يبقى ادعولي ربنا يسترها معايا ويحفظني!!

كانت كلماتي مُختلطة بمشاعر فيّاضة، وهدوء عجيب في نفس الوقت، وانتقل هذا الهدوء لكلّ مَن حولي، فقال والدي مُخاطبًا الجميع: إن شاء الله خير، هوّ كبير وعارف مصلحته، وهيعرف يحافظ على نفسه، اتوكّل على الله يا ابني، وطمنّا بالتليفون كل شوية!!

بهذه العبارة تمّ حسمُ الخلاف حول خروجي من عدمه،

فودّعتهم جميعًا، واستقليت سيارتي إلى مكتب إدارة الطب الشرعي، حيث قمتُ بأخذ حقيبتي والبالطو الأبيض، وقمتُ بكسر قفل غرفة فنيّ التشريح وأخذ الشنطة التي بها أدواتُ التشريح حيث لم يكنْ بحوزتي مفتاح القفل، ولم يكن في تخيّلي أنني قد أواجه مثلَ هذا الموقف.

مرّت عدةُ دقائق حتى وصلت سيارةُ الشرطة إلى المكتب واصطحبني اثنان من أمناء الشرطة إلى حيث سنلتقي سيارة الإسعاف، وطوالَ الطريق لم يتوقّف هاتفي المحمول عن الرنين، تارة مكالمة من والدتي، وتارة أخرى من زوجتي، وتارة أخرى من الضابط (علاء) المحتجز بداخل المشرحة، وقد استغرقت الرحلة ما يقارب الساعة تقريبًا، ولكنها بدتْ لي كأنها قد استغرقت دهرًا، وقد استغرقت أنا في كثير من الأفكار والتخيّلات السوداوية، فربما يقتحم الأهالي المشرحةَ قبل وصولي، وأجد مزيدًا من الجثث في انتظاري، وربما يقتحم الأهالي المشرحةَ بينما أنا بداخلها، وأصبح أنا أحدَ الضحايا، ربما وربما وربما، للأسف لا يوجد سيناريو مُبهج مرّ على خاطري في هذه الليلة!

وصلنا إلى أعتاب مدخل القرية حيث وجدنا قوةً أمنية كبيرة متمركزة، وفي حالة تأهب، في منظر أثار داخلي مزيدًا من القلق

والاضطراب، كما كانت هناك سيارة إسعاف في انتظاري، وما إن ترجلت من سيارة الشرطة حتى تبادلت عباراتِ التحية المعتادة مع الضّابط المسئول في الموقع، والذي اصطحبني إلى سيارة الإسعاف حيث كان بداخلها سائقها فقط لا غير.

تحرّكت بي سيارة الإسعاف مبتعدة عن القوة الأمنية وتوغلنا لمسافة بسيطة في طريق ترابي مظلم على مشارف القرية، وفي حركة مباغتة توقّف سائق الإسعاف والتفت إليّ شاهراً سلاحاً ناريًّا في وجهي، وقائلًا في صوت أجش: عارف إيه ده يا دكتور؟

في هذه اللحظة سقط قلبي بين ضلوعي، ولم أستطع أن أنطقَ بكلمة، وكان أخشى ما أخشاه أن يكون قد تمّ اختطافي كرهينةٍ من أجل الضغط على الضّابط المحتجز للإفراج عن الجثة، وكانت هذه كارثة بكلّ المقاييس!

مرّت لحظاتٌ ثقيلة قبل أن ألتقط أنفاسي، وأقول في صوت خافتٍ مُرتعب: في إيه؟!

انطلقت ضحكةٌ مجلجلة من السائق وهو ينظر إليّ بسخرية قبلَ أن يخفض سلاحَه، ويقول: جرى إيه يا دكتور!؟ ما لك متّاخد كده ليه؟ مش أنت بتاع ميّتين؛ يعني قلبك جامد؟ اجمدْ أَومّال.

تبدّلت ملامحي من الذّعر إلى الغضب قبل أن أصيحَ في وجهه: جامد إيه وزفت إيه!! أنت مين ووقّفت العربية ليه هنا؟

بدا الارتباكُ على السائق قبل أن يقول: معلش، أنا آسف يا دكتور، حقّك عليّا، كان المفروض أعرّفك بنفسي الأول، أنا الرائد (محمد بكر) من العمليات الخاصّة، وأنا معاك علشان أحميك في المأمورية دي.

زادت حدّةُ غضبي ولم أتمالك نفسي، وأنا أصيح موبّخًا إيّاه: ومعرّفتنيش ليه واحنا في الكمين!؟ محدش قالّي ليه حتى كنت أبقى مطمّن بدل القلق ووجع البطن اللّي أنا فيه ده؟

حاول ضابط العمليات الخاصة امتصاصَ غضبي وهو يقول في هدوءٍ وأدبٍّ جَم: اعذرني يا معالي الدكتور، وجودي كان لازم يبقى سرّي، ومحدّش يعرف غير قائد الموقع ، خُفنا حدّ يبلغ الأهالي في البلد إنّ في الأسعاف ضابط يقوموا يستهدفونا، أو يقتلوا الضابط المحتجز، وكمان كنا عاوزين نضمن ليك أكبر قدر من الحماية جوّه البلد في ظلّ الظروف المشتعلة دي.

حاولت قدرَ المستطاع التحكّمَ في غضبي، وهدأتْ نبرات صوتي وأنا أقول: حصل خير إن شاء الله، ممكن تعرّفني إيه الوضع بالظبط في البلد اللّي احنا رايحينها دي؟

أجاب الظّابط في هدوء: البلد منقسمة فريقين بين العائلتين المتنازعتين، في توازن في القوى والسلاح بينهم، الحمد لله كلّ المناوشات أسفرت عن خسائر مادية في البيوت، وبعض الإصابات من الطرفين، بسّ مفيش قتلى لغاية دلوقتِ، مفيش أيّ مكان آمن في البلد غير الجامع الكبير والمستشفى، غير كده أي مكان مُستباح، الوضع من مصادرنا جوّه البلد أشبه بحرب أهلية!

كانت عباراته مقتضبةً ومختصرة، ولكنها توحي بالكثير من المخاطر التي تنتظرنا، وقد حاولت الاطمئنانَ على سلامتنا الشخصية فسألته: طيّب، هل عندك خطّة معينة علشان الليلة دي تعدي على خير؟

رفع الضابط السلاح الناري مرّةً أخرى في وجهي، وقال: ما هو ده اللّي كنت عاوز أقولهولك من ساعتها، دي طبنجة ٩ مللي كاملة الذخيرة، تحطّها في شنطتك علشان تستخدمها لوِ الوضع اتطوّر لا قدّر الله، بتعرف تستخدمها؟

رددتُ عليه باستنكار: أيوه طبعًا باعرف استخدمها، بسّ مش هاستخدمها ولا حتّى آخدها معايا، أنت عارف لوْ حدّ من الأهالي فتّشني ولقى معايا طبنجة ده معناه إيه؟! معناه إنّي مش

دكتور وإني باضحك عليهم، وساعتها قول يا رحمن يا رحيم عليّا، وعلى الناس المحبوسة في المشرحة.

بدتِ الحيرة على وجه الضابط قبلَ أن يلتقط سترةً واقية من الرصاص كانت بجواره وهو يقول: طيب خلاص بلاه السلاح، خد الْبس القميص المضادّ للرصاص ده تحت الجاكت بتاعك.

التقطت السترةَ الواقية من الرصاص وحاولتُ ارتداءها إلّا أنها كانت ضيّقة بعض الشيء بما لا يتيحِ لي ارتداء البالطو الأبيض خاصّتي فوقها، ممّا دفعني أن أعيدَ السترة إليه قائلًا: للأسف مش نافعة تتلبس تحت البالطو، ده عيب الكرش بقى.

ردّ في استنكار: بالطو إيه يا دكتور! الْبسها تحت الجاكت بتاعك، أنت بتستهبل؟

قلتُ له بتلقائية: سيبها لله يافندم، البالطو الأبيض ليه هيبته برضه ووقاره، وبيهدّي الناس في المواقف اللي زيّ دي، صدقني والله بيطمّنوا وبيرتاحوا، وده من واقع تجاربي.

قاطعني الضابط في غضب قائلًا: وقار إيه وبتاع إيه!؟ يعني لا سلاح ولا قميص مضادّ للرصاص!؟ أنت عاوز تموت واللّا إيه!؟ أنت خارج وسط بلطجية معاهم سلاح ومش بيتفاهموا،

شكلك مش عاوز ترجع لعيالك.

رددتُ عليه بنبرة هادئة طغى عليها التأثُّر قائلًا: بصّ يافندم، أنا شفت دكاترة زمايلي بيموتوا من عدوى جهاز تنفسي بسبب مريض كَحّ في وشهم، شفت زميلي بيموت من فشل كبدي بسبب فيروس اتنقل له من شكّة إبرة، وليّا كام زميل ماتوا في حوادث عربيات وهمّا رايحين أو راجعين من نبطشياتهم في إنصاص الليالي، مسمعتش عن دكتور مات بطلقة رصاص، وإذا كان مكتوب لي أموت برصاصة فأملي الوحيد إنّها تيجي في دماغي علشان متعذّبش، إحنا كدكاترة اتعوّدنا على الموت وريحته، وحياتنا لا بقت مِلْكنا ولا مِلْك عيالنا ولا أهلنا، اتوكّل على الله خلّينا نخلص من الليلة الطويلة دي.

كانت كلماتي كفيلة بإنهاء الجدل، وبالفعل تحرّكنا بالإسعاف

حتى دخلنا القرية وأرشدنا بعض الأهالي المدججين بالسلاح إلى المستشفى، حيث سمح لنا الأهالي المتجمهرون حولها بالدخول حتى وصلنا إلى مقربةٍ من مشرحة المستشفى، فتوقفت الإسعاف ونظر لي الضابط قائلًا: خلّي بالك من نفسك يا دكتور، بمجرّد إنك هتنزل من الإسعاف أنا هاركْنها بعيد شوية، وأنزل أتمركز في حتّة قريبة من مدخل المشرحة، ولو أنا حسّيت إن الوضع هيتدهور هاتدخّل بالسلاح اللي معايا، وأنتوا حاولوا

نتعاملوا من جوّه المشرحة.

جاوبته في لهجة أقرب إلى التوسّل قائلًا: بلاش سلاح تحت أيّ ظرف الله لا يسيئك، إحنا وسط جيش من الأهالي، والطلقة هيتردّ عليها بـ ١٠٠ طلقة، حتى لو اقتحموا المشرحة عليّا ملكش دعوة، إحنا هنتصرف، أحسن بدل الجثة هيبقى في ١٠٠ جثة!

ردّ عليّ الضابط مبتسمًا: هافكّر في الموضوع ده ساعتها، لا إله إلّا الله.

نظرتُ إليه وقلت: محمدٌ رسول الله، أشوف وشّك بخير.

ثمّ ترجلت من سيارة الإسعاف، وارتديت البالطو الأبيض، وحملت حقيبتي الشخصية وحقيبة أدوات التّشريح، ومشيت بهدوء نحوَ المشرحة، وكان الرجال المتجمهرون يفسحون الطريقَ لي في صمت تحت أضواء لمبات الغاز والكلوبّات، وقد بدا الموقف كأنّه مشهد من فيلم (شيء من الخوف)!

ما إنْ وصلت إلى باب المشرحة حتى التفتّ إلى الجموع المتحفزة، واسترجعت في ذهني بعض الجُمل التي اعتدتُ أن أقولها في مثل هذه المواقف، وقلت بصوت عال: البقاء والدّوام لله يا جماعة، ربنا يرحم الفقيد، والحمد لله إحنا في أيام مفترجة،

نسأل الله أن يتغمّد الفقيد فيها برحمته، أنا جايّ من سفر بعيد وفي وقت صعب، وسايب بيتي وعيالي علشان أجيب حقّ المرحوم، ودمّه ميضيعش، يا ريت تساعدوني وتدّوني فرصة أشوف شغلي، و....

في هذه اللحظة، قاطعني أحدُ الواقفين قائلًا في غضب: حقّ إيه ده اللّي تجيبوه يا أولاد الـ (...)، الواد مرمي جوّه من خمس ساعات، وموقّفين دفنه علشان حتّة ورقة وشْخَة من الحكومة، إحنا عارفين اللي قتلوه، وهنطلّع (......)، ومن إمتى الحكومة جابت حقّ حدّ!؟

تدخّل في الحوار شخصٌ آخر، وقال: وعاوزين تقطعوا جتّته يا أولاد ستّين (....)، والمصحف اللي يمدّ إيده على ابن عمّي لأكون منيّمه مكانه.

وفي لحظة، تعالت أصواتٌ غاضبة من هنا وهناك، ودبّت حالة من الفوضى بين الجمع الغاضب، وبدأ بعضُهم يلوّح بسلاحه في الهواء، بينما همّ بعضُهم بالاقتراب من باب المشرحة استعدادًا لاقتحامها، وفي هذه اللحظات بدأت أشعرُ بقلق وخوفٍ عارمينْ، لا سيّما أنني أعزل، وبلا أي حماية، كما أنني كنتً أخشى أن يتسرّع ضابط العمليات الخاصة ويتدخّل

مطلقًا النار تجاه الجمع الغاضب، وما هي إلّا لحظات حتى حدثَ ما كنت أخشاه، ودوّى في الأرجاء صوتُ عيار ناريّ لم أتبيّن مصدره، وهوى قلبي في قدمي مرة أخرى، وفي هذه المرّة أغلقت عيناي، ونطقت بالشهادتين واستعددت للمذبحة!

ساد صمتٌ تامّ عقب إطلاق النار، وللحقيقة انتابتني الحيرةُ في تلك اللحظات، بينما مازلت أغمض عيني، لم أعرفْ هل الرصاصة تبِعتْها أخرى، واستقرّت في رأسي وانتهى كلّ شيء دون أنْ أشعر!؟ أمَ هل أنا في كابوس طويل لا يريد أن ينتهي؟

فجأة قطع صوتٌ قوي هذا الصمتَ الذي يلفّ المكان، وجعلني أفتح عيني لأرى صاحبه، فوجدتُه رجلًا عجوزًا يقف على بُعد عشرات الأمتار وسطَ الحشد الغاضب، ويحمل في يدِه مسدسًا مرفوعًا لأعلى، ويبدو أنّه كان مصدرَ إطلاق النار، وكان الرجلُ يبدو مُهابًا بين الحاضرين، وربما كان زعيمهم أو ما شابَه، وكان الرجل يتقدّم نحوي بينما يقول: اهْدوا يا رجّالة، الراجل ضيفنا وميصحش نتعامل معاه كده.

كانت كلماتُه قد بدأت تدخِل الطمأنينة على قلبي، وشعرت أنّ هناك مَن سيحميني، أو على الأقلّ لن يساهم في إراقة دمي،

نظرتُ للرجل مصطنعًا ابتسامة، وقائلًا: تسلم يا حاج، كتّر خيرك.

توقّف الرجل على بُعد عدةِ أمتار منّي، وقال في صوتٍ جَهْوري: نوّرت البلد يا دكتور، قدامك ساعتين زمن من دلوقتِ علشان تشوف شغلك في المشرحة جوّه، وتجيب حق ابننا، بعد ساعتين تطلّع لنا الواد ندفنه أو نخشّ ناخده بنفسنا.

كانت كلماته صارمةً وحازمة بشكل مُخيف، ففكّرت أن أتفاوضَ معه وهممتُ بالنطق قبل أن يستطرد الرجلُ في لهجة حاسمة: الفاتحة يا رجّالة!!

لحظتَها حقًّا لم أعلم أيّ فاتحة يقرأها (الرجّالة)!! هل يقرءون الفاتحة على حديث كبيرهم، أم يقرءون الفاتحة على روح المرحوم؟، كلّ ما كنت أرجوه أنْ لا تكون (الفاتحة) على روحي أنا إنْ لم أنصَعْ لكلام كبيرهم!

في صمتٍ استدرت نحو المشرحة، وطرقت بابها بهدوء، فأجابني رجلٌ من الداخل قائلًا: مين بيخبّط؟

قلتُ له في هدوء: أنا الدكتور (مصطفى جاهين) من الطب الشرعي، افتح بسرعة.

فتح الرجلُ بالداخل- وكان هو الضابط (علاء الجوهري)-

البابَ بحذر وما إن رآني حتى تهللت أساريره وجذبني لداخلِ المشرحة، وأغلق الباب قبلَ أن يحتضنني وهو يصيحُ قائلًا: حمدًا لله على السلامة، أقسم بالله ما أنسالك الموقف ده يا دكتور.

قلت له في ضيقٍ واضحٍ: الله يسلّمك يا فندم، ربنا يعدّيها على خير، يلّا بسرعة نبدأ علشان الناس اللّي برّه دي هتاكلنا بعد ساعتين لو مخرجناش، اجهزْ علشان تساعدني.

ثمّ نظرت لأمين الشرطة المتواجد معنا، وقلت له: ورقة وقلم واكتب اللّي هاقولك عليه.

وفي حركة سريعة، فتحت حقيبة أدوات التشريح، وناولت الضابط القفازاتِ الطبية، وارتديت أنا أيضًا القفازات، وقمتُ بكشف الغطاء عن جثة الضحية، كانت الجثة لرجلٍ في منتصف العقد الرابع من العمر، كان نصفُ رأسه مهشّمًا، خاصّة من منطقة الجبهة، وكان نسيجُ المخ يظهر عبرَ الجرح والعظام المهشمة، وتبيّنت وجود مجموعة خدوشٍ حول مقدم العنق، ولم أشاهد أيّة إصابات أخرى بعموم الجسم.

وممّا أثار انتباهي وجودُ زُرقة واضحة بشفتي المتوفّى وأظافره، وهي ما نشاهده غالبًا في حالات الاختناق، إلّا أنّ برودة الجو يمكنها أن تفسّر ذلك نسبيًّا، وربّما إصابة الرأس في بعض

الحالات قد تسبب هذه الزرقة، إلّا أنّه قد ساورتني شكوكٌ عديدة بخصوص هذه الملاحظة!

شعرتُ بدهشة شديدة وأنا أنزع ملابسَ الضحية عنه، فقد كانت عبارة عن جلبابٍ فقط لا غير، ولا يرتدي أسفلَها أيّ شيء آخر، ممّا لا يتناسب مع برودةِ الجو، فسألت ضابطَ الشرطة قائلًا: هي الواقعة حصلت ازّاي بالظبط؟

قال الضابط: مراتُه بتقول إنّه كان راجع من الغيط قبل صلاة العشاء، وكانوا لسّه مخلّصين عَشا، وبعدين الباب خبّط قام جوزها يفتح الباب، سمعت زعيق وصوت جوزها بيصرّخ، قامت تلحقه لقته مرمي على الأرض ودماغه متعورّة، وشافت ناس من عيلة (....) طالعين يجروا يهربوا، ومعاهم شوم في إيديهم، قامت هي شدّت جوزها لجوّه البيت، وبلّغت أهله، ونقلوه على المستشفى، بسّ كان مات!

قلت له بينما أباشرُ ما أفعله: غريبة! يعني يقعد في الجوّ ده بجلابية على اللّحم كده، حتى يعني مكانش مثلًا داخل ينام ولا حاجة.

كنتُ أثناء عملي أخبر المعلومات لأمين الشرطة حتّى يقوم بتدوينها لتكون كمسوّدة لي فيما بعد، وكنت أمْلي عليه

الملاحظات التي أراها على الجثمان، ولكنّي ما إن بدأت في شقّ الجلد وفتح التجويف الصدري والعنق للضّحية حتى سمعت صوتَ شيء يرتطم بالأرض، فاستدرتُ لمصدر الصوت فوجدته أمين الشّرطة وقد سقط مغشيًّا عليه، ربّما خوفًا ممّا رآني أقوم به، فاضطرب الضابط الذي يساعدني وهمّ بالتوجّه إليه لمساعدته وإعادته إلى وعْيه، إلّا أنني صحتُ فيه بقسوة: سيبك منه دلوقتِ وركّز معايا أنا، عاوزين نخلّص، يا إمّا هننام جنب المرحوم جثث هامدة، سيادة الأمين لسّه شباب وهيفوق لوحده دلوقتِ!!

نظر إليّ ضابط الشرطة بدهشةٍ ممزوجة باستنكار، ولكنْ سرعان ما اختفت تلك النظرة عندما أفاق أمين الشّرطة، وظلّ جالسًا على الأرض!!

كانت هناك انسكابات دموية غزيرة حولَ منطقة العنق من الجهة الأمامية، ممّا جعلني أزيل كافة الأنسجة الرّخوة، وأفحص عظام العنق، وبالفعل وجدتُ كسرًا حيويًّا بالعظم اللّامي بمقدمة العنق، وهو ما يعني أن هناك مَن قام بالضغط بعنفٍ على العنق، وهو ما يعني أنّ الضحية من المرجّح مات نتيجةً أسفكسيا الخنق العنفي، وليس نتيجة إصابة الرّأس الجسيمة، ولكنني لم أخبرِ الضابط بشكوكي في حينها، وأكملت ما أفعله.

كنتُ قد انتهيت من فحص الأحشاء في التجويف الصدري والبطني، وتبيّنت عدم وجود ثمّة إصابات أو مظاهر مَرضية بهما، وقمتُ بفتح المعدة لفحصها، وأخذ بعض محتوياتها من أجل التحليل الكيماوي، إلّا أنّني وجدتها خاليةً، ممّا أثار دهشتي أيضًا لأنّه حسبما روتْ زوجة الضحية فإنّهما كانا يتناولان الطعام قبلَ الواقعة مباشرة!

كانت هذه نقطةً تُزيد من شكوكي حولَ الواقعة بأكملها، ولكنّني كنت أحاول الانتهاء بأقصى سرعة وتركيز من الشقّ الفني الخاصّ بالتشريح قبلَ انتهاء مهلة الأهالي لنا، وبالفعل فحصتُ أيضًا منطقة الرأس التي تبيّنت بها أنّ الإصابة كانت جسيمة، وأدّت إلى تهتّك بأنسجة الفص الجبهي الأمامي الأيمن مع تفتّت العظام بيمين الجمجمة، وهو ما ينتجُ عن الاعتداء بأداةٍ صلبة راضّة ثقيلة، ويمكن أن تحدث فعلًا من جرّاء الاعتداء باستخدام شومة أو حجر ثقيل، أو ما في حكم ذلك من أدوات، إلّا أن تلك الإصابة ومع جسامتها لا تؤدّي إلى وفاةٍ فورية في أغلب الأحيان؛ لأنّ تلك المنطقة من المخ لا تتحكم في الوظائف الحيوية لأجهزة الجسم مثل التنفس وانتظام دقات القلب.

أنهيتُ كافة الخطوات، وأخذت عيناتٍ من دماء وبول

الضّحية لإجراء البحث الكيماوي، واجتهدت لإغلاق الشقّ الجراحي النّاتج عن التشريح بصورةٍ لائقة، وقمتُ بغسل الجثمان بالمياه، وللأمانة كان دور الضابط (علاء) في مساعدتي له أكبرُ الأثر في إنهاء عملية التشريح بسرعة وسلاسة، وعلى الرغم من أنّه ربما يكون غيرَ ذي خبرة في هذا العمل إلّا أنّ خوفه من اقتحامِ الأهالي للمشرحة حال تأخرنا تحول إلى شجاعةٍ وانضباط كبيرينْ أثناء العمل معي ومساعدتي، وهو ما دفعني إلى أنْ أقول له عقب انتهائنا: تسلم إيدك يا (علاء) بك، والله لو تخشّ كلية طب ممكن أرشح تبقى طبيب شرعي معانا بعد ما تخلص.

ابتسم (علاء) وهو يشعرُ بالإطراء، وقال: لأ طب إيه ده اللّي أخشه!! أقسم بالله ما أدخل مستشفى ولا مشرحة تاني طول عمري، توبة من دي النوبة، . كده خلّصنا خلاص يا دكتور؟!

أجبته قائلًا: أيوه خلّصنا في زمن قياسي، ساعة ونص، كده فاضل لنا نص ساعة.

قال لي في تعجّل: يلّا نخرج بقى يا ريّس قبل ما يدخلوا علينا، كده رضا قوي.

قلتُ له في هدوء: لأ لسّه بدري، الحالة مخلصتش ومعملناش اللّي علينا، الراجل ده حقّه لسّه مجاش، والبلد لسّه والعة، وأنا

شاككٌ في رواية زوجة الضحية.

نظرَ لي (علاء) باهتمام وهو يسألني: قصدك إيه يا دكتور؟ أنت لقيت حاجة واللّا إيه؟

أجبتُه في حسم: أيوه لقيت، بسّ معلش عاوز أعرف، هيّ زوجة المجني عليه فين دلوقتِ؟

قال (علاء) في اندهاش: عندنا في المركز بناخد أقوالها هيّ ومجموعة من أهَل المجني عليه، خير في إيه قلقتني يا دكتور؟

قلتُ له: اتّصل باللّي بيحقّق معاها وخلّيه يسألها سؤالين، يقولّها مين اللّي مسك المجني عليه من رقبته، والسّؤال الثاني.. همّا أكلوا إيه على العشا؟

دونَ نقاش اتصل (علاء) بزميله في المركز، وطرح عليه السؤالين ثمّ أنهى الاتصال، وفي خلال خمسة دقائق وردتِ الإجابةُ على السؤالين، وكانت: هو انْضَرب على راسه بشومة، والعشا كان رزّ معمر وكفتة بصلصة، وموجودين لسّه في التلاجة.

نظرتُ إلى (علاء) وقلتُ له بهدوء: الست دي كدّابة، سبب الوفاة هو الخنق اليدوي بالضغط على العنق وليس إصابة الرأس، وده معناه إنّ لازم علشان القاتل يقضي على القتيل

يفضل ضاغط على الأقلّ دقيقتين على عنق المجني عليه، وطبعًا حسب روايتها الموقف كلّه حصل بسرعة والناس ضربوه وطلعوا يجروا، الحاجة التانية إنّ معدة المجني عليه مفيهاش أيّ أكل من أيّ نوع، وده معناه إنها بتكدب، والرواية كلها متفبركة، كلّمهم في المركز يواجهوها بالمعلوماتِ دي قبل ما نخرج من المشرحة!!

كان لكلماتي وقعُ الصاعقة على (علاء) الذي سارع بالاتّصال بالمركز مرّة أخرى، وَهو يتمتم في غضب: بنت الـ (.....) ولّعت الدنيا ووقّعت الناس في بعضها.

وبالفعل أخبر المحقّقين في المركز بتلك المعلومات، وما هي إلّا دقائق ووردتْ إلينا الحقيقة كاملة إثرَ انْهيار الزوجة نتيجة مواجهة المحقّقين لها بالمعلومات التي أخبرناهم بها، وكانت التفاصيل صادمة!!

الزّوجة على علاقة آثمة بشابّ من نفس القرية، واتّفقت الزوجة والشابّ على التخلص من الزوج وإلصاق التّهمة بأفراد من الأسرة التي لها عداواتٌ مع أسرة القتيل، في ليلة الجريمة حضرَ الزوج من عمله بأرضِه الزراعية منهكًا ومرهَقًا، بدّل ملابسه وخلد إلى النوم على الأريكة بصالة المنزل، فقامت

الزوجة بالاتّصال بعشيقها الذي حضرَ، وبحوزته شومة، حيث فتحت له الزوجة الباب، وأدخلته إلى حيث استلقى زوجها، وعندها انْهال العشيقُ بالشومة علي رأس الزوج مهشّمًا رأسه بلا ضميرٍ أو رحمة، ثمّ لاذ العشيقُ بالفرار حتى يتسنّى للزوجة إكمال باقِي المخطط، إلّا أنّ الزوج لم يكنْ قد توفِّي، وكان يهذي بكلماتٍ وأصوات غير مفهومة، وخافت الزوجة أن يفتضح أمرُها، فأطبقت على عنقه وخنقته بيدها حتى لفظَ أنفاسه الأخيرة، بعدها قامت بإبلاغ الأسرةِ بالواقعة المكذوبة، وتباعًا حدثت كافة المواجهات بين الأسرتين المتخاصمتين بناءً على رواية الزوجة الخائنة!!

كنّا قد تنفّسنا الصعداءَ أنا و(علاء) وأمين الشرطة المحتجَز معنا، وقبل أن نخرج بدقائق من المشرحة سمعنا ضجيجًا خارجها قبل أن ينتهي ذلك الضجيج فجأة، ويسود هدوءٌ عجيب، ممّا دفعنا للخروج خارج المشرحة فوجدنا أنّ الجمع قد انفضّ، ولم يبقَ إلّا أشخاص معدودون على أصابع اليدِ الواحدة، وكان منهم الرجلُ العجوز الذي أمهلني ساعتين لإنهاء عملي.

نظرتُ لـ (علاء) وقلتُ له في تعجّب: أومّال فين باقي الناس؟!

نظرَ لي (علاء) وقال مبتسمًا بابتسامةٍ ذات مغزى: العيلتين عرفوا الخبر من رجالتهم في المركز، ودلوقتِ راحوا بيت القاتل عشيق الزوجة، ويخلّصوا الموضوع بمعرفتهم!

نظرتُ له باندهاش وأنا أقول: يا خبر اسود!! ده كده في جثث تانية هنتدبّس فيها!

قال (علاء): متقلقش يا دكتور، الناس دي مبتهزّرش، وفي قانون تاني بيحكم تصرفاتهم، و للأسف قانون غير اللّي نعرفه إحنا خالص.

كانت كلماته مقتضبة، ولكنّني فهمت ما تعنيه، كانت تعني أنّ في مثل هذه المجتمعات هناك حكومة وقضاء موازٍ لقضاء وحكومة وسلطة الدولة، وأنّ ذلك القضاء الموازي يصدر الأحكامَ وينفّذها دون نقضٍ أو استئناف أو مرافعات، وعلى الرغم من اعتراضي على مثلِ ذلك الوضع إلّا أنني لم أكن أجرؤ للتّعبير عن أي من هذا!!

خلالَ لحظات شكرني (علاء) على قدومي، ومساعدته في الخروج من المأزق الذي كان فيه، ثمّ ودّعني واستقلّ سيارة الشرطة هو وأمين الشرطة ورحَلَا.

وبينما أنا أبحثُ بعيني عن سيارة الإسعاف والضابط (محمد

بكر) من العمليات الخاصة، فوجئت بالرجل العجوز صاحب السطوة يتوجّه إليّ، ويمدّ يده مصافحًا إيّاي قائلًا: شكر الله سعيكم يا دكتور، نقدر نخشّ ناخد ولدنا من جوّه؟

صافحتُه وقلت له: البقاء لله يا حاج، آه تقدروا تدخلوا تغسّلوه وتعملوا إجراءات الدفن.. وأنا إديت إشارة التّشريح لأمين الشرطة وبلّغها للنيابة خلاص.

نظر الرجلُ للمرافقين له، وأشار لهم بالدخول إلى المشرحة، بينما انتظر هو معي قبل أن يقول وهو يشير إلى مائدة مغطّاة بمفرش أبيض: اتفضّل يا دكتور حاجة بسيطة كده ناكل عيش وملح مع بعض، زمانك على لحم بطنك من امبارح، والشمس طلعت، وأنت تعبت معانا كتير.

نظرتُ إليه مبتسمًا وقلت: كتّر خيرك يا حاج، اعْذرني بسّ عاوز اتوكّل على الله علشان زمان أسرتي قلقانة، وبرضه علشان سوّاق الإسعاف بقى له كتير مستني.

ابتسم الرجل العجوز وقال متهكمًا: آآآآه.. قصدك حضرة الظابط؟! هوّ في سواق إسعاف بالجسم ده؟! ولّا في سواق إسعاف يسيب عربية الإسعاف اللّي هي عهدة، ويبقى فصّ ملح وداب في حتّة غريبة!؟

نظرتُ له وقلتُ بارتباك: والله يا حاج مش عارف أقولّك إيه.. بسّ أصل....

قاطعني الرجل مبتسمًا: متقلقش يا دكتور، أنا فاهم كلّ حاجة، وعارف هوّ جه معاك ليه، شاور له يجي يفطر معانا ، إحنا ناس تعرف في الأصول، وميصحّش تمشوا من غير ما نعمل معاكم واجب!!

كانت كلماته مطمئنة، ولم أكن أيضًا أرغب في إغضابه، خاصّة أنني مازلت في مرمى نيرانهم، بالإضافة إلى أنّي كنت منهكًا وجائعًا إلى أقصى مدى، فأشرتُ لضابط العمليات الخاصة بالقدوم، وجلسنا جميعًا إلى المائدة حيث تناولنا الإفطار، وشربنا كوبًا من الشاي قبل أن نستأذن للانصراف، صافحنا الرجل العجوز مرّة أخرى، ومال تجاهي وقال في هدوء: متشكّرين يا دكتور على اللّي عملته، الصراحة أنا مكنتش واثق فيك، ولا فاكر إنّ وجودك هيفرق من أصله، بسّ أنت بحقّ الله فرقت كتير، ومجيّتك زاحت عن البلد دم كتير كان هيضيع، روح الله يبارك لك.

ودّعته بابتسامة، وشكرته على حُسن ضيافته، وكانت كلماته قد أثلجت صدري، وأذهبت كثيرًا من الهمّ والإرهاق الذي

لازمني طيلةَ المأمورية، حقًّا نحن نقوم بعملنا لوجهِ الله دون أن ننتظر جزاءً أو شُكُورًا من أحد، ولكنّنا في النهاية بشر ربّما تسعدنا كلمة شكر أو لمحة إطراء أو نظرة امتنان!!

استقللت سيارة الإسعاف رفقةَ ضابط العمليات الخاصة، ولذْنا بالصمت طيلة الطريق، ربّما لأننا بالفعل كنّا مجهدين إلى أقصى درجة، وما إنْ وصلنا إلى مكتب الطب الشرعي حتى ودّعني الضابط قائلًا: فرصة سعيدة يا دكتور والله، وأرجو إننا نتقابل في ظروف أحسن من دي.

نظرتُ إليه وقلتُ مازحًا: أنا الأسعد يافندم والله، بسّ معتقدش ضابط عمليات خاصّة وطبيب شرعي ممكن يتقابلوا في أيّ مناسبة سعيدة خالص.

انفجر الضابط بالضحك وقال: لا متقولش كده يا دكتور، إن شاء الله نتقابل على خير، سلامو عليكم.

افترقنا وصعدتُ إلى المكتب حيث قمت بختم العيّنات المأخوذة من جثمان المجني عليه بالشمع الأحمر وقمتُ بحفظها، وقمت بإعادة أدواتِ التشريح إلى غرفة عامل التشريح، وأعدت قفل الغرفة إلى مكانه، وكتبت له ورقةَ اعتذار عن كسر الباب.

تذكّرت أنّني لم أتلقّ أيّ اتصالات من أسرتي منذ دخولي للمشرحة، فتفقّدت هاتفي فوجدته مغلقًا لنفاد شحن البطارية، فسارعتُ بركوب سيارتي وتوجّهت إلى المنزل، وما إن فتحت باب المنزل حتى وجدت أمّي وأبي وزوجتي في انتظاري، وما إنْ رأتني أمي حتّى صرخت قائلة: ابني..حبيبي، إيه اللي عوّرك كده!؟ إيه الدّم اللّي في صدرك ده؟

لم ألحظْ أنّ قميصي قد تلوّث بالدماء جرّاء قيامي بعملية التشريح بنفسي، وطبعًا كان المنظر مخيفًا بعض الشيء، فحاولت تهدئة أمي وأنا أقول: متخافيش يا حاجة، والله العظيم ما هو دمي، ده بسّ أنا اتعكّيت علشان كنت شغال بإيدي.

هدأ روعُ أمّي قليلًا، وحاول أبي تشتيتَ انتباهها وهو يقول: حمدًا لله على السلامة يا (مصطفى)، قوم بقى اطلعْ شقتك، وغيّر هدومك ونام.

قاطعتْه أمّي قائلة: ويفطر قبل ما ينام.

قلتُ لها وأنا أتّجه نحو أريكة في الصالة وأستلقي عليها: فطرت والله يا أمّي الحمد لله.

سألتني زوجتي باندهاش: فطرت فين إن شاء الله؟

أجبتُها بصوت خافت: في المشرحة!

وحقيقة، إنّني لا أتذكر ما حدثَ بعد هذا، حيث أنّني استغرقت في النومِ على الأريكة من فرط التعب والإجهاد، ولم أستيقظ إلّا بعدَ هذه المحادثة بـ ١٢ ساعة كاملة، وكم كنتُ سعيدًا عند استيقاظي أنّني نجوت مِن هذه المأمورية، نجوتُ من حرب أهلية بوصف أدق!

خاتمة



بعد ١٣ عامًا مِن العمل كطبيبٍ شرعي، رأيت فيهم مِن الجرائم ما يشيبُ له الولدان، أعترفُ أنَّ حصيلتي المعرفية والنفسية شديدةُ السواد والسوء، ولكنْ ربّما كان هناك ما قد ينفعكم في هذه الحصيلة.

مش بسّ الفقر كان سبب في جرائم بشعة، ولكن برضه الثّراء كان سبب في بعض الجرائم الأبشع.

مفيش حاجة اسمها (مستحيل مستواه الاجتماعي أو العلمي يخلّوه يرتكب الجريمة دي)، الشيطان مش بتفرق معاه الحاجات دي.

كلّنا (عافانا الله وإياكم) عُرضة لأنْ نكون مجرمين أو ضحايا يتمّ

ذكرهم ليل نهار في الأخبار، ولكنّه سترُ الله ولطفه بنا فقط مَن يمنع عنا هذا.

ماتحكمْش على الحوادث ذات الاهتمام الإعلامي من وجْهة نظرك، أو تحليلات الإعلاميّين، الحقيقة غالبًا لا يعرفها إلّا المتخصّصون اللّي اتعاملوا مع الموضوع بصورة مباشرة.

وأخيرًا، مفيش حقيقة مُطْلقة أو عدل مُطلق في الدنيا، وفي حاجات مهْما حاولنا واجتهدنا في كشف غموضها، لا يعلم سرّها إلّا الله، وفوقَ كل ذي علمٍ عليم.

شكرًا على حُسن قراءتكم، ونلقاكم في الجزء الثاني من السّلسلة بمشيئة الله...

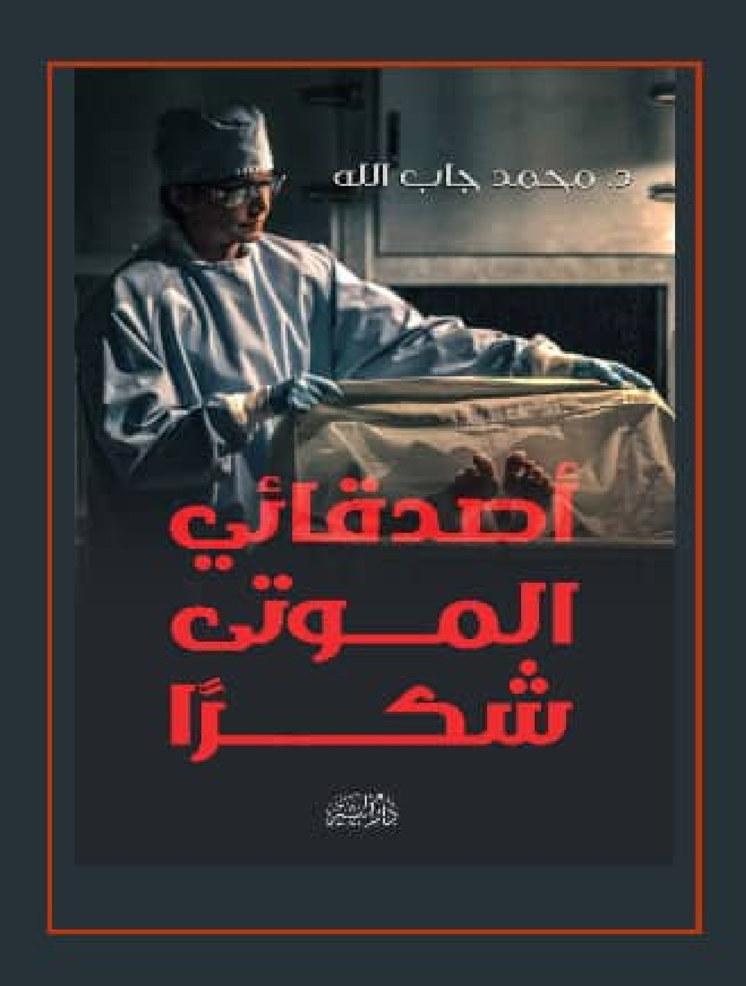
بعنوان: (لسان الموتى الناطق).

المؤلف في سطور



- د/ محمد جاب الله- استشاري الطب الشرعي والسموم الإكلينيكية.
- حاصل على درجة الدكتوراه في الطب الشرعي من جامعة (ناجويا سيتي) في اليابان.
- يعمل كطبيب شرعي منذ ١٣ عامًا في كلّ من مصر واليابان والمملكة العربية السعودية.
- هذه هي أول سلسلة قصصية من تأليفه.
- معلومات التواصل:

Email:Drgaba97@hotmail.com


د. محمد جاب الله
أصدقائي الموتى شكرًا